الهادي العبيدي

تحت السور

فصول في التجديد والاصلاح



نشر وتوزيع مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله
تونس

الهادي العبيدي

تحت السّور

العابد

تقديم الاستاذ توفيق بكّار

الإهداء

أهدي هذا الكتاب إلى روح المفكرين الذين غامروا بأرواحهم وكيانهم ومصير عائلاتهم، حتى يكون لتونس اليوم سيادة وجامعات وأدب ومسرح بإذكائهم لإحساس الشّعب التّونسي بذاتيته وبوجوب اللّحاق بركب الحضارة عن طريق الإجتهاد والعلم وذلك في وقت كانت فيه هذه الرّبوع ترزح تحت وطأة الاستعمار والجهل.

كما أهديه إلى عائلات هؤلاء المفكّرين الذين قاسوا وصمدوا مع هؤلاء الأعلام.

الدّكتور المعزّ لدين الله العبيدي

تصـــديـــر
للأستاذ توفيق بكّار

إنّ سيرة الهادي العبيدي الذّاتيّة لا تنفصل عن سيرة جيل كامل من الأدباء والفنّانين بدأت حركتهم في أواخر العشرينات وامتدّت إلى ما بعد الاستقلال وهي قصّة طويلة تمتزج فيها الملاحم بالمآسي، آمنوا وهم في عزّ الشّباب بقيم الأدب والفنّ وغامروا في سبيلها بكل الكيان لا بطرف اللّسان حين لم يكن للأدب ولا للفنّ في عامة البيئة من الاعتبار إلّا على أنّهما مفسدة للأخلاق ومضيعة للعمر فتحدّوا بعزم الفتوة الظّروف المعاكسة وجاهدوا بالقلم أو الرّيشة أو بأوتار الألات أو رنّات الحناجر أو بحركة الوجه وإشارة اليدّ حتى يكون لتونس الحديثة قصص وشعر ورسم وموسيقى وغناء ومسرح وتمثيل وكان يحدوهم في ذلك وعيهم بواجب المساهمة في انماء إحساس الأمّة مع الطّلائع السّياسيّة المناظلة، بذاتيتها ضاربة الجذور في أعماق التاريخ متطوّرة وفق روح العصر. وما أحوج ما كانت الأمّة في تلك الفترة العصيبة من مصيرها إلى إذكاء أحساسها بشخصيّتها لأنّ الاستعمار كان ينكر في عناد شديد أن تكون لها هويّة وعراقة في الحضارة بل وينفي عنها حتى مجرّد الوجود فعانو في القيام بهذه المسؤولية من وطأة الاستعمار الخانقة وقلة احتفال الناس بشأنهم عناء شديدا.

نظم الشّعر بالقصائد الفصحى في القضايا الفكريّة والإجتماعية وأزجالا بالدّارجة في نقد الأخلاق العامّة على لسان الحيوان أحيانا، وألّف القصّة مع جماعة

تحت الصّور وكان فيها على مذهبهم في النّكتة اللاّذعة كما تشهد بذلك أقصوصته الممتعة «فطّومة» وترجمته صحبة الدّوعاجي قصة «كنز الفقراء» للكاتب الايطالي غبريال دانو نازو، وله إلى جانب الوضع والترجمة في هذا الفنّ فصول في النّقد منها فصله «لنحطّم السّدود» وعنوانه دليل على معناه، وكثيرة مقالاته في النّقد المسرحي وهي اليوم مرجع هام للمؤرّخين في هذا الفنّ. وإن الذي أسعفه الحظّ بمطالعة ما طوته بطون الصّحف والمجلاّت القديمة من كتابات الهادي العبيدي ليعجبه منه دقّة عباراته مع أناقة في الأسلوب وجرأته الفكريّة في علاج القضايا الحسّاسة ونزعته الشعبيّة الاصيلة. ومن أجل مزايا الهادي العبيدي في شتّى المعارك التي خاضها المجدّدون وهو منهم، أنّه كان من السبّاقين إلى المناداة بحقّ المرأة التّونسيّة في العلم والتّطوّر.

وحين كان الشّابي يتألّم من قلّة صدى شعره في بلاده بل من تعريض الخصوم به على صفحات بعض الجرائد السّاخرة كـ«النّديم» انتصر له الهادي العبيدي تلقائيّا فألقى محاضرة رائدة عن «الشّعر التّونسي وإلى أين وصل» نوّه فيها بالإنقلاب الفنّي الكبير الذي أحدثه الشّابّي في مسار الشّعر التّونسي وردّ فيها على الحملة المغرضة التي كانت تستهدفه، ولمّا قام كرباكة للذّود عن الصّناعات التّونسيّة المهدّدة بالإفلاس من شدّة مزاحمة البضائع الأجنبية تطوّع الهادي العبيدي مع ثلّة من الشّعراء والفنّانين لمساندته بقصائده، كذلك كلمته في أربعينيّة كرباكة بعد ذلك بسنين في الاشادة بكفاحه الاجتماعي.

وعندما ظهرت جماعة تحت السّور كان «عينا» من «أعيانها» فشارك الدّعاجي والعريبي وبيرم، بخبرته المهنيّة في تأسيس الصّحف الهزليّة مثل «السّرور» و «السّردوك» و «الشّاب» وهي من أطرف ما ابتكرته القريحة التّونسية في فنّ النّقد السّاخر وما أحوجنا إلى مثلها اليوم.

ثمّ تفرّغ الهادي العبيدي شيئا فشيئا للصحافة منذ أسّس جريدته «الصّريح» وخاصّة بعد ما تولى رئاسة تحرير «الصّباح» فظلّ مدّة سنوات يطالع قرّاءه كلّ يوم بكلمته في الأحداث القوميّة والعالميّة. غيري أولى منّي بالحديث عن هذه النّاحية من نشاطه كلّ ما يمكن أن أقوله شخصيّا هو أنّه كان ولا يزال من

ألمع الصّحافيّين وأستاذا في هذه المهنة وقد يحدث كما حدث لى مرارا ألّا يوافقه المرء على بعض آرائه ولكنّه لا يملك إلّا أن يعترف له بالاقتدار وألّا يكن لشخصه الإحترام لأنّه أخلص لمهنته إخلاصا نادرا وهي مهنة صعبة تضطرّه كلّ يوم إلى تحليل سيل الأحداث الطامي وتقديرها بميزان العقل عسى أن يستخلص منها وجه الحقّ وفي ذلك مجازفة يوميّة بالفكر والضّمير لها لذّتها وشرفها وخطرها لكثرة المحاذير وشدّة تشعّب القضايا في هذا العصر «الشّبيه بالصّافي وهو كدر» كما يقول بيدبا الفيلسوف. فكان العبيدي مع كلّ افتتاحيّة يراهن على معنى الأحداث فكم ربح من رهان وكم خسر ؟ يكفيه أنّه راهن من أوّل عهده، بالصّحافة وبعقيدة وطنيّة راسخة على جملة من الافكار التحريرية والقيم الاصيلة وعلى عدد من رجالات هذا الشعب وهذا البلد وما أخطاء.

توفيق بكّار

المقـــدمـــة

بسم الله الرحمان الرحيم

الهادي العبيدي هو من أبناء تونس البررة الذين رأوا نور الحياة في مطلع هذا القرن، في عهد اتسم بالجهل والفقر المدقع والتشتت وهيمنة مستعمر غاشم، وكان لهذا الوضع الذي كان عليه المجتمع أثره الكبير على تكوين شخصية الهادي العبيدي الذي سرعان ما نضج تفكيره فكان حبّ المراهق لتونس أولا، أحبها فأخلص لها وكرّس حياته لتصحيح مسارها ووضع أسس تونس الغد مع ثلة من المفكرين.

في أواخر الحرب العالمية الأولى كان الخطر محدقا بهويتنا العربية الاسلامية لأن المستعمر الفرنسي بعد استحواذه على السيادة والأرض كان يخطط لمسخ هويتنا وطمس معالم حضارتنا. فكانت المسألة مسألة حياة أو ذوبان.

إن ما فعله الهادي العبيدي والطاهر الحداد وأبو القاسم الشابي وزين العابدين السنوسي وعبد الرزاق كرباكة وعلي الدوعاجي وأحمد الدرعي وبيرم التونسي باستحواذهم على مشعل القيادة الفكري لتحريك السواكن وتوضيح السبل بأفكارهم النيرة وكتاباتهم التي بدت في ذلك العصر بدعا، فأثارت جدلا ونقاشات أفاقت العقول من سباتها الذي طال، يعتبر ثورة ثقافية بأتم معنى الكلمة بدأت مع مطلع القرن وتواصلت إلى الخمسينات يوم اندلعت الثورة المسلحة.

اقتحم إذا باب الاجتهاد الموصد منذ مئات السنين وهبت رياح تغيير فكري عميق على العقليات كان هدفها انقاذ المجتمع من المسخ والتجنيس. فكان الهادي العبيدي أول من بادر بالمطالبة بتعليم المرأة في 11 نوفمبر 1927 في جريدة «الصواب» فأثار ذلك نقاشات وردود فعل سلبية استهدف لها في صحيفتي «النهضة» و«الوزير» كانت سببا في معرفته بالطاهر الحداد الذي حرر مقالات في الموضوع نفسه إبتداء من 11 ماي 1928 ثمّ شرع في دارسة قضية المرأة من كلّ جوانبها وضمنها كتابه «إمرأتنا في الشريعة والمجتمع» الذي زاد الحملة تأججا، فاتهم الجماعة بالفكر والإلحاد وأصبحوا محلّ تهديد ووعيد في أي مكان يحلّون به.

هذا الموقف الشجاع والمصلح من قبل الهادي العبيدي في قضيّة المرأة وتعليمها سنة 1927، يثير الإعجاب والتقدير خصوصا إذا عرفنا نوعية تكوينه الديني البحت وسنه أنذاك الذي لم يتعدّ عتبة العشرين. وكان يعتبر أول إصلاح في الوصفة، إذ كان مرض الجهل مستفحلا فبدون تعليم شامل لكافة فئات الشعب من رجال ونساء، أغنياء وفقراء، حضر وبدو، صغار وكبار، لم يكن يمكننا التصدّي لداء المستعمر الشامخ بحضارته واكتشافاته العلمية وصناعاته وجيوشه، والواثق من مصيره وأهدافه.

لقد كانت الجرائد بعيد الحرب العالمية الأولى أداة الاتصال الوحيدة بين النّاس فكان مسطرا له أن يشغف بها وهو الكثير الاطلاع والمطالعة والبحث، وأن يمرر آراءه ورسالته عبر قنواتها فكانت بالنسبة إليه الكتابة على أعمدتها لا تقل شأنا وقيمة عي تأليف كتاب، فكان يتقيد بقواعد اللغة العربية الفصحى عندما يكتب بها، ولا يمزج البتّة بينها وبين العامّية في جريدة واحدة، ويعطي للأسلوب قيمته، فسما بهاته الطريقة بمستوى الكتابة في الصحف وكانت مواقفه هذه في حد ذاتها تجديدا وإصلاحا لما كان متداولا. وتحمسه الشديد هذا للغة العربيّة الفصحى ووجوب احترام قواعدها لم يمنعه من الكتابة بالدارجة للوصول أكثر إلى عامة الشعب الذي كان جله أميّا فكتب قصصا على لسان الحيوان قال عنها بيتين :

وحكايـــــاتي على الهوايش   معمولـــة لتربيـــة العبـــاد
العاقـــل بيها يتـــربى   ويفهـــم من الـــقصّة المراد

ومن بين هذه القصص قصّة ممتازة، لفيلسوف يخلص طوير الليل من شر بقية الحيوانات التي تضمر له عداءا لأنّه يمتاز عليها بالرؤية في الظلام والعبرة هنا واضحة.
بفضل الزّاد الثّقافي الذي كونه الهادي العبيدي لنفسه أمكن له الغوص والتفكير والكتابة في ميادين عديدة ومتشعبة فبادر في آخر العشرينات بالمطالبة بإصلاح مناهج التعليم حتى تواكب تقدم العلوم والعصر، سواء كان ذلك التعليم علمانيا أو دينيا وطالب بإصلاح الفلاحة والاقتصاد التونسي الذي كان ينهب أنذاك من قبل المستعمر، كما طالب منذ سنة 1932 بإعطاء الأوّلية للطب الوقائي في الميدان الصحي لأنّه لاحظ تكاثر الوفايات بين الأطفال، ثمّ دعا إلى النهضة بالأدب والمسرح والتجديد فيهما فأبرز خصال شعر أبي القاسم الشابي في وقت (1933) جوبه فيه هذا الشعر بالامبلاة والتغريض، فكان العبيدي مرة أخرى في الموعد، ومتقدما على عصره، لإنارة سبيل مثقفي بداية الثلاثينات لقيم أصبحت الآن من المفروغ منها والمتعارف عليها. وكذلك فعل مع شعر عبد الرزاق كرباكة ومع أجيال من الأدباء الشبان تلته.

أما فكره السياسي، فكان في تلك الظروف العصيبة وطنيا مخلصا، فلم يكن مثقفا هامشيا بل كان في صميم المعارك وفي مقدمة من جابه المستعمر بكتاباته وتحاليله السياسية فاضحا الاعيبه ومخططاته حاثا الشعب والقادة السياسيين على الاخلاص ومزيد العطاء والصمود. وما موقفه الرافض للحكم الذاتي في سنة 1955 والمطالب بالاستقلال التام ونقده الهزلي اللاذع في الجريدة التي كونها لهذا الغرض «الفرززو» إلا دليلا آخر على إخلاصه المتناهي لهذا الوطن، وهذا الموقف المبدئي من جهته مع ثلة من الوطنيين الدستوريين كان سببا في التعجيل بالإستقلال التام في سنة 1956 لأنه كان ورقة رابحة أثناء المفاوضات التي كانت تجري آنذاك في باريس بين فرنسا وقادة الحزب الحر الدستوري.

ولقد كانت جل مواقف الهادي العبيدي سواء منها في خصوص تعليم المرأة أو إصلاح مناهج التعليم أو لفت نظر الشعب إلى سلبيات المجتمع أو تقييمه الثوري للانتاج الأدبي أو المسرحي جريئة ومتقدّمة على سلم القيم التي كان معمولا به أنذاك فكانت تدهش لأنها لا تساير التيار الفكري السائد بل تحاول إصلاح

سلبياته فتثير النقاش وردود الفعل بمختلف أنواعه وعرضته إلى كثير من المضايقات في ذلك الحين. ولم يكن رحمه الله يخاف في الحق وفي الخير لأمته لومة لائم ولا يكترث بحملات زبائن الاستعمار وذوي الأفكار الجامدة على شخصه، ولا حتى بوجود المراقب الاداري للمقيم العام الفرنسي الذي كان يأتي كل مساء لمراقبة ما يكتبه الهادي العبيدي وحذف ما يرتئيه من كلام يعتبره خطير على أمن فرنسا ومعمّريها ونظام حمايتها، فكان يدخل معه في نقاشات حادّة، ولا يتورّع في إخراجه من المطبعة لاعنا من بعثه. لقد كان كاتبنا يشبّه نفسه بذلك البستاني ذي اليد المخدوشة المجروحة نتيجة غرس الورود وجنيها فكذلك رجال الاصلاح لا بدّ أن تمسّهم في وقت ما الجروح المادية أو المعنوية من طرف السُّذّج فلا ورد من غير شوك.

ربّما يكون من المفيد هنا أن أذكر للتاريخ حادثة رواها لي والدي، ربّما لا يعرفها إلا القليل، حادثة وقعت إبّان تأجّج لهيب المعركة الأخيرة وقيام الثورة المسلّحة، لما كانت اليد الحمراء الإرهابيّة تصفي جسديا من تراه خطيرا على وجود المستعمر ومن له دور فعال في دفع الثورة المسلّحة إلى استقلال تونس، فقامت باغتيال العديد من المناضلين والزعماء، رحمهم الله رحمة واسعة وأسكنهم فراديس جنانه. فكانت سنوات 1952 - 1954 سنوات رهيبة بحق وضع فيها المستعمر كل ثقله وما أوتي من وحشية وعنف وغدر لارهاب التونسيين ولكن والحمد لله لم يتمكن من ذلك واستجاب القدر لارادتنا.

في سنة 1953 إذن قررت اليد الحمراء اغتياله من جملة من كانوا في قائماتها السوداء، كان والدي بمكتبه بجريدة الصباح الذي كان آنذاك في نهج الدباغين (سابقا)، لما دخل عليه رجل تبدو عليه علامات الارتباك جلية وكانت بيده أوراق وجرائد برزت من بين طياتها، لما أغلق باب المكتب وراءه فوهة مسدس وازداد ارتباك الرجل الذي كان يتكلّم العربية لما سأل عن الهادي العبيدي الذي تسمر في مكانه ولكنه والحمد لله تمالك أعصابه وتظاهر بترتيب المكتب وأوراقه وأجاب باقتناع : «كان هنا وهذا هو مكتبه، أمرني بترتيبه وخرج لكنه أعلمني أنه عائد بعد قليل من الوقت يمكنك انتظاره في البهو». ويبدو أن الارهابي لم يكن يعرف

وجه ضحيته معرفة كافية لكي لا يلجأ إلى السؤال عنه للتحقق منه، فكانت هاته الجزئية الفرصة الوحيدة للنجاة عبر باب جانبي، وظلّ بعدها مختفيا، لا يتردّد على الجريدة ولا على منزلنا، متّخذا من منزل عمتي مخبأً له.

ولما بدأت تونس تتأكد من خروج الفرنسيين واسترجاع سيادتها شيئا فشيئا، خصوصا بعد مجيء منداس فرانس، اتّضح البعد القومي العربي والمغاربي في فكر الهادي العبيدي السياسي إذ أنه لم يتوقف عند هذا الحد، وواصل كتاباته وتحاليله السياسية موضحا أن استرجاع تونس لسيادتها لن يكون كاملا ما دامت الجزائر مستعمرة فرنسية، فوقف بكل ثقله مع الإخوة الجزائريين، الذي كانوا يتّخذون من مكتبه بالجريدة مكان لقاء متجدّد واعتبر قضيتهم قضيته تماما مثل ما فعل مع ليبيا والمغرب وفلسطين، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية.

ومن جهة أخرى لم يهمل أي نشاط يمكن أن يفيد ويقوي لحمة المجتمع التونسي فشجع الأولياء علي السماح لأبنائهم بتعاطي الرياضة التي لم يكن لها الشأن الذي تتمتع به في أيامنا هذه، وكانت تعتبر مضيعة للوقت، فأبرز منافعها في كتاباته وساعد على تعميمها عملا بالمقولة الشهيرة «العقل السليم في الجسم السليم».

ساهم مع رفاقه، الأدباء جماعة مجلس تحت الصور المعروف والذي كان من مؤسّسيه والذي كان يجمع نخبة المثقفين والأدباء والرّسامين الموجودين على الساحة ابتداء من سنة 1929 وحتى بداية الحرب العالمية الثانية في الرقي بالأدب والفنون وإخراجهما من الابتذال السائد في تلك الفترة بتشجيع من المستعمر الذي كان يدس عن طريق زبانيته الكلمات الفرنسية والعبارات العبرية في جلّ ما ينتج لمسخ اللغة العربية ومن ثمة لمسخ حضارة بأكملها، فحارب الهادي العبيدي ورفاقه هذا التمشّي بتأليفهم لشعر وزجل جيّد وهادف وشجّعوا الفنانين على أدائه فكانت بحق ثورة فنية تدخل في إطار الثورة الثقافية التي تكلمنا عنها.

نادى كذلك بالنهوض بالمسرح وشغف به وكان يعتبره أداة تسلية وتربية في آن واحد فشارك في الإنتاج والتأليف، له رواية «عبد المؤمن ابن علي» بالعربية

الفصحى ورواية «الذبائح» كما اقتبس روايات هزلية لكن هادفة باللغة العامية مثل «الغيرة تذهب الشيرة» و«ضاع صوابي من أحبابي» يرمي من ورائها إلى محاربة الظواهر المبالغ فيها في مجتمعنا. أمّا نشاطه في النقد المسرحي فقد بدأه سنة 1927 بفصل عنوانه «التمثيل المسرحي وأثره في رقي الأمم» ودأب في نقده على تهذيب ذوق الشعب وإرشاده لكي يكون فيه حبّ المسرح وملكة التمييز بين الانتاج الجيّد والانتاج الرديء. فهو في هذا الميدان كان سبّاقا وكوّن مرجعا للباحثين ومدرسة قائمة الذات.

لقد كان هذا الجانب الفكري التجديدي والمصلح لكتابات الهادي العبيدي طيلة نصف قرن، هو الذي أردت إبرازه، نظرا لكون الجوانب المهنية للشخصية أو الأدبية قيل فيها الكثير. ولقد كان حريصا رحمه الله لما كلفني بجمع وثائقه ومخطوطاته وكتاباته، على إبراز هذا البعد التجديدي والمصلح فيها، وفي فلسفته في الحياة، إذ أنه كان يعتقد أن الشرط الوحيد للنجاح هو أن يسطر الانسان هدفا يصبو إليه، فأي عمل يقوم به المرء يجب أن يكون في إطار هدف سام وإذا لم يتوفّر هذا الشرط أي إذا قام الانسان بعمل آلي خال من كل خيال ومن كل حماس لكسب مرتب شهري، لن يتمكن من تخطّي الصعاب والمثابرة والابداع وتكون النهاية خيبة المسعى للفرد والمجتمع بأكمله. فهو لم يكن صحفيا بالمعنى المتداول يستقي أخبارا ثمّ ينقلها، بل تخطّى هذا المستوى إلى مستوى أرقى في إطار الهدف الذي رسمه لنفسه في حياته، وهو تصحيح مسار مجتمع بأكمله كاد أن يعبث به الاستعمار والجهل، فكان عمله مصلحا، تثقيفيا ومبدعا في آن واحد.

عسى أن يكون هذا الكتاب الذي سعيت إليه بعون الله وثيقة للتاريخ ومنارا للأجيال الصاعدة التي لم تعرف التضحيات التي تكبّدها هؤلاء المفكّرون المجدّدون في تلك الفترة، فقاسوا ألوان الشقاء المادي والمعنوي حتى أن جلّهم توفّي في عز الشباب الواحد تلو الآخر وكان الهادي العبيدي آخرهم، وبرحيله طويت صفحة ناصعة من تاريخ بلادنا، أثبت فيها هؤلاء المثقفون أن لتونس رجالا يمكن الاعتماد عليهم في أوقات الشدّة قادرين على التفكير ورسم الملامح الحضارية والابداع في كل

المجالات، عملوا بدون تبجّح وبنكران للذات مدهشة في أيامنا هذه.

فارقنا الهادي العبيدي بجسده لكن فكره وقيمه لن تفارقنا، هي قنديل يضيء أعمال وسلوك الأجيال التي ناضل من أجلها وعزاؤنا أنه رحل مرتاح البال سعيد النفس لأنه حقق بقلمه وكتاباته وفكره التغيير والاصلاح الذي كان ينشده بدون حسابات ولا خلفيات وهذا ما أكده في آخر تصريح أدلى به حين قال :

«كانت حياتي كلها صراعات ضد الجهل والاستعمار والأفكار الجامدة ولو كان بالامكان أن أعيد كل شيء لفعلت ذلك، المهمّ أنني ساهمت في الاصلاح والتغييـر.»

الحكيم المعز لدين الله العبيدي

الباب الأول

في تجديد الفكر واصلاح المجتمع

يجمع هذا الباب الأوّل، الفصول التي كتبها الأستاذ الهادي العبيدي، في تجديد الفكر وإصلاح المجتمع التونسي الذي كان في أوائل هذا القرن في وضع لا يحسد عليه.

فكاتبنا غامر بسمعته ومستقبله لمّا قرّر نشر أفكاره التقدّميّة وجلّها كتبها بحماس الشاب الغيور على وطنه ومجتمعه بالرغم من وجود مناخ سياسي واجتماعي خانق في تلك الحقبة من تاريخنا، لأن وعيه بالمخاطر التي كانت تهدد المستقبل القريب والبعيد لوطنه كان طاغيا على أي حسابات شخصيّة بحتة.

سيجد القارىء في هذه الفصول التي نشرت،إبتداء من سنة 1927 في جريدة «الصـواب»، تحت عنوان **شـذرات**،والسنوات التي تلتها، ثم في جريدة «الصريح» التي أسسها الكاتب لمواصلة نضاله الفكري والسياسي سنة 1949، لمّا بدأت التعبئة الشعبية للثورة المنسلحة وكان يكتب بها في ركن إفتتاحي بعنوان **إصغ إليّ** ويمضيها بإمضآت مختلفة من أهمها : «هدى» أو «الصريح» وتواصل نشاط جريدة «الصريح» على امتداد ثلاث سنوات بالرغم من العراقيل الماديّة المختلفة التي كان الاستعمار وزبانيته يختلقونها لإسكات صوتها الوطني.

ثم أخيرا في جريدة «الصباح» بالركن الافتتاح الذي جعل اسمه **صباح الخير** وكان يمضيه ب«يقضان» لأنّه بالفعل قضّى سنوات عديدة يقضانا باللّيل لمتابعة آخر مستجدّات القضيّة التونسية العادلة وتحليلها الفوري وتبليغها إلى عامّة

الشعب حاثّا أو منبها أو فاضحا ألاعيب ومخططات الاستعمار الأخيرة اليائسة ومنها فصول لم يسمح مراقب المقيم العام الفرنسي بنشرها سنوات 1952 - 1953.

أمّا مقالاته الظرفية فهي عديدة جدّا ولا يسمح المجال لنشرها في هذا الكتاب، وهي تحليل فوري لسيل الأحداث السياسيّة المتلاحق، تفيد بدون شكّ أهل الاختصاص من طلبة معهد الصحافة ورجال الاعلام بصفة عامّة، فهي تعتبر دروسا تطبيقيّة في تقنيات الكتابة الصحفيّة وجاءت في فترة أخيرة من حياة الكاتب لمّا آستقلت تونس وشاهد ما نادى به طوال نصف قرن من النضال يتحقّق، فوضع إزره، وتفرّغ كلّيا للصحافة وإلى تكوين أجيال من الصحافيّين إذ لم يكن لتونس في فجر الاستقلال معهدًا لتكوين رجال الاعلام مثلما هو الشأن في وقتنا الحاضر.

روح التجديد

كثيرون من لا يفهمون معنى التجديد أو يدركون روحه ففريق يخيل إليه أنه ثورة عمياء على المعتقدات والأخلاق والنظم الموجودة لا فرق بين غثها وسمينها والحق أن هذا فوضى وخطل من الظلم أن نطلق عليه لفظة التجديد التي تباينه على خط مستقيم. وغيره يرى أنه في الاصلاح السطحي لبعض ما ذكرنا وهو أيضا فهم سقيم ونظرة في حدود ضيّقة لا تزيد عن الترميم لبناءات واهنة الأسس وترقيع ثياب كان الأولى أن تلقى إلى اللهيب.

كلا. فليس هذا ما نرمي إليه وان ما نعنيه سيكون سدا منيعا في وجه الفوضى التي يفهم بها جل شبابنا النير من نابتة المدارس معنى التجديد ومعولا لتفويط المفهوم الثاني الذي يتصوّره بعضهم إذ هو عبث لا فائدة فيه. بل التجديد هو الأخذ بالأسباب الفعّالة التي دفعت بالأمم الراقية في أحضان ما تتمتع به من حرية وتمدّن مما حكم العقل بلزومها وأيدت التجارب حسن أثرها. هذا توضيح بالمعنى العام تتدرج تحته جزئيات عدّة ومواضيع لا تنحصر منها.

إصلاح نظام العائلة وتثقيف المرأة التي جاء الاسلام بتحريرها كما يعرفه كل من يفهم روح التشريع الاسلامي ومنع تعدّد الزوجات وتحوير أساليب ومواد التدريس بالجامع الأعظم وإصلاح الديوان الشرعي وتأسيس مصارف وبنوك وشركات تعاونية لترقية الحياة الاقتصادية إلى غير ما هنالك من مواضيع تنطوي تحت هذه الكلمة الصغيرة.

لكن الجامدين من رجال الدين لم ترقهم هذه الفكرة وأقلقتهم الدعوة إلى تحقيقها فاعتزموا القيام في وجه دعاتها وهم يشعرون في داخلهم بوجاهتها. فجنحوا الى استعمال طرق غير مشرفة تدل على عجزهم بأن روجوا كلمتي إلحاد وملحدين وجعلوهما تسبيحا في كل مكان قصدوه يريدون إطفاء نور الحق بالباطل و«يأبى الله إلا أن يتم نوره» وقد اتخذوا من بساطة بعض أفراد الشعب وسذاجة اللفيق خير مساعد للحيلولة دونه والاستفادة مما ينشره المصلحون.

إن بلادنا انتابتها علل شتى وأدواء كثيرة برحت بها ومن يدّعون الطب فيها كثيرون هم أيضا لا يقترون عن معالجتها ولكنهم لا يحسنون إلّا استعمال المخدّرات والمسكنات الوقتية وكثيرا ما كان هذا النوع داعيا للموت لما يحويه من سم زعاف. أجل هذا هو موقف زعماء الأمة ومن يدّعون الزعامة نحو هذا الشعب المسكين. فإن قلت إن هذا لا يجلب الشقاء ويجب أن تغذي مريضنا بما يبعث فيه القوة والنشاط ان نفحص مواطن الداء بمباضع حكيمة لاستئصلاله من جذوره صاحوا بك : انه مجنون يريد الاجهاز على المريض بالمباضع والأدوية التي تثير آلامه ونحن نريد أن لا يحسّ بالآلام فيبيح جذا والله انه بينما يحاول أناس في أقطار الغرب الوصول إلى القطب الشمالي وربط العلائق مع سكان المريخ وتباغتنا المدينة بين حين وآخر بمعجزات الاختراع والاكتشافات توجد أمم أخرى على جوانب البحر المتوسط ما زالت بصدد المناقشة في تنظيم بعض الأحوال الشخصية وهل هذا التنظيم ذو أثر صالح أم لا !

حقيقة ان هذا المما يبعث المعتبرين على الحنق والثورة ضد هاته الصخور المشلولة الأفكار من إعجاز الجمود وهكذا تنشأ النهضة في الشعوب لأنها «سورة تملّك من الأمة حسها تشبه ان تكون سورة غضب لشيء مفقود ترى بشعورها ذلك المفقود شيئا ضئيلا ثم يتمثل شيئا فشيئا إلى أن يصير روحا قوية تقوى بها النفسية القومية ساعة فساعة إلى أن يكون حقيقة ملموسة».

إذن فالمسؤولية ملقاة على كاهل رجال الدين وحدهم فهم يقولون في معرض المفاخرة والتبجح أن الدين الاسلامي صالح لكل زمان ومكان ومرن يتشكّل حسب القوالب العصرية لكل زمان. ثم انك عندما تريد استخدام شيء

من محدثات هذا العصر وقد أبانت التجارب ضرورية للحياة يقفون في وجهك قائلين ان الدين يمنع هذا وانك تكون كافرا ان فعلته ناقضين أقوالهم بأفعالهم مما قد يحمل كثيرا من ضعفاء النفوس بيننا على نبذ الدين تماما واعتناق بعض الأديان التي تفرّق بين الحياتين الروحية والاجتماعية.

وهكذا يموت شعب كامل وأمة بأسرها ضحيّة شرذمة قليلة ساد عليها الهوى والهوس فاستبدّت به وعبثت بمستقبله ومصالحه وهو الذي أمدها بتلك السيادة التي تسير بها اليوم.

فيا رجال الدين تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ان لا نلاحظ في أعمالنا الا مصلحة الوطن والانسانية وحكّموا ضمائركم وكونوا منصفين وقولوا بحق هل ما ندعو إليه إلحاد وزندقة يمس بالدين الذي جعلتم أنفسكم حماته. دعوا الهوى جانبا والمنافع الشخصية الخسيسة وساعدوا الشعب على نهضته والبلوغ إلى ذرى مجده الدارس مساعدة يذكرها لكم التاريخ بإجلال وتقديس والله يعلم ما تسرون وما تعلنون.

جريدة الصواب سنة 1928.

التجديد الاجتماعي

يقوم اليوم جدال عنيف في أقطار الشرق العربي الناهض بين أنصار الجديد وخصمائه في الاجتماع والآداب. فالمجددون يسعون إلى تطوير كل شيء حسب مقتضيات العصر وطبق روحه ويرون أن مدنيّة الأندلس وثقافة بغداد اللّتين يسبّح بحمدهما المحافظون لم يعودا شيئا مذكورا أمام المدنية الغربية من القرن العشرين وما شخص عنه كل يوم من معجزات الاختراع والابتكار بل يعدونها كسائر المدنيّات القديمة المنقرضة التي أخنى عليها الدهر وداستها أقدام العصور فتركتها عقاء لا روح لها ويأنفون التدثّر بأردية الآباء العتيقة.

أما خصماؤهم المحافظون فهم من ضعاف القلوب وواهني العزائم ممن شلّ أفكارهم التبلّد وفتّ في ساعدهم الاستسلام وغلب عليهم التشاؤم وتوقع الشر في كل حركة فلا ينظرون للمستقبل إلا وعلى أعينهم غشاوة سواء.

ونحن نكتفي هنا بالكتابة في موضوع التجديد الاجتماعي بعد أن كفانا مؤونة الكتابة في التجديد الأدبي زميلنا الكاتب المجدّد السيد البهلي النيال بمقاله الممتع في العدد الممتاز من «النديم» الأغر.

التجديد أكسير الحياة وعلة البقاء وتلك سنة الله وناموس الطبيعة في كل شيء والانكماش على القديم والجمود أمام الأفكار الحرة مظهر من مظاهر الاضمحلال القريب وداع من دواعي فناء شعوب كثيرة سردها التاريخ.

إن ما نقصده بالتجديد هو قطع دابر تلك الأوبئة الفتّاكة بكيان الأمة أوبئة العادات السخيفة التي قعدت بنا في حضيض لا قرار له وتعديل النظم القسيمة لهذا المجتمع. وليس هو ما يروجه الجامدون وبالتالي المتظاهرون بالتديّن ــ والله يعلم ما في قلوبهم ــ لاستمالة اللفيف الساذج والتمويه على البسطاء لينالوا لدى الشعب زلفى من أنا ندعو إلى تنقيح الشريعة وتحوير الدين مما اختلقوه من مخيلاتهم فإن هذا لا يصدر إلا عن معتوه حرم منة العقل والتفكير.

لم تحرم تونس من أفراد مصلحين يعملون لرقيها ويسعون بما أوتوا به من ثقوب رأي وقوة تفكير لتنصيبها في المنصب اللائق بها بين أمم العالم وشعوبه ولكن قلتهم وعدم تضامنهم في رابطة توحّد شتاتهم وتجعل منهم جبهة قويّة في وجه السخافات يجعلاننا لا نتفاءل بظهور نتيجة مجهودهم العظيم في وقت قريب.

ولو تضامونا وكونوا رابطة قلمية لكانت الغلبة لهم من أول يوم سيّما والواقع يؤيّدهم والعقل يعزز مذهبهم ويعّم حججهم الناهضة.

إن الأمة التونسية التي نامت نوما عميقا حتى خشينا أن يكون أبديا قد انتبهت إثر الحرب الكبرى. تلك الحرب التي كانت خير درس تلقّته الشعوب. فوجدت نفسها وحيدة في بيداء الحياة وقد تقدمتها قافلة العالم مجدة في السير فحاولت الالتحاق ولكنها ضلّت الطريق وبقيت تدور حول نفسها عددا من السنين وأنهكها الإعياء فأفقدها التمييز.

فكل مصلح يتقدم للأخذ بيدها وإرشادها للطريق المستقيم تنفر منه مذعورة حاسبة أنه يريد أن يسلبها حلتها الفاخرة التي ورثتها عن ابائها الأوّلين وكل من حاول تكسير غل عن عنقها فرت هاربة مخافة أن يغتصب دملجها الثمين.. !

ذلك مثل أمتنا التونسية تريد النهوض وتودّ الالتحاق بأمم العالم المتمدّن ولكنها تتعشم شرا في مصلحيها وتفر من وسائل الترقّي فهي كالمريض الأحمق يريد الشفاء ويأبى استعمال الدواء.

«إنه لأسهل أن تضع السلاسل والأغلال في أيدي الناس وعلى أعناقهم من أن تنزعها عنهم إذا كانت هذه السلاسل والأغلال تبدو عندهم ذات احترام خاص يتصل بالتقاليد القديمة».

هذه حكمة بليغة قالها برنارد شو أكبر كتّاب الانقليز في العصر الحاضر وقد شاهدنا صِدقها ولكن لا يجب أن تكون هذه الحقيقة باعثة فينا خيال اليأس فإن الاقدام والتضحية شرطان لازمان لمن أراد أن ينال مبتغى ويدرك مراما ولنا عبرة بالأمم الشرقية وعلى رأسها تركيا وأفغانستان وفارس التي سبقتنا في اقتفاء أثر مدنية الغرب فبلغت في التقدم أعلى درجة فلنأخذ بالأسباب التي أخذت بها وأنا الكفيل بوصولنا في أقرب وقت لا على درجات التمدن.

لسنا بملحدين ولا أعداء للدين كما يصوّرنا المغرضون والله يعلم أن قلوبنا مطمئنّة أكثر منهم بالايمان ولكنّنا رأينا الدين قد انخرم وأضيفت إليه أشياء ابتدعتها الأدمغة الجوفاء وهو بريء منها فقمنا نرفع عنه ذلك الوقر الثقيل مخافة أن يقضي عليه الدجالون ونحن أقرب إلى الدين من هؤلاء الذين لا يفهمون روحه ولا يدركون فلسفته وعدل تشريعه ويميزون بين الأسطورة وآي التنزيل.

نريد أن ننهض ونشارك العالم في التقدم كجزء منه فليكن عملنا منظّما وعلى أساس الحكمة ولتكن نهضتنا اجتماعية إذ هي الحلقة الأولى في سلسلة النهضات وليوجّه شق من مفكّرينا وجهتهم نحو الاصلاح الاجتماعي ويتخلّصوا من عبودية الارهاق.

فإليكم يا أنصار التجديد أوجه هذا النداء : لتكن حملتكم عنيفة كالعاصفة تكتسح أعجاز الجمود الخاوية وكالشمس المشرقة تمزّق بشعاعها الوهّاج سحب الخرافات والأوهام. أنيروا للأمة طريق الحياة بمصابيح أدلّتكم الناهضة وإيمانكم القوي بمذهبكم المبارك إذا ما زجّ بها المبطلون في انفاق التدليس المظلمة لتكونوا أطبّاء ماهرين ولو كان المريض أحمقا وليكن الاتحاد والتضامن في رابطة قوية مغيّرة وسائلكم في النجاح.

(*) جريدة «الصواب» سنة 1928.

ضفـادع الاجتـمـاع

لا تعجب يا حضرة القارىء الكريم فليس من لقب يصح أن يطلق على هؤلاء المتنطعين غير هذا العنوان.

وحقيقة انهم شبيهون بالضدافع بل هم ضفادع الاجتماع، كلما سمعوا حركة إصلاح أو تجديد لقديم أبلته السنون وحتم العقل والتطور نبذه الا ملئوا جو البلاد نقيقا ممقوتا لاستدراج البله والمغفّلين ضد تلك الحركة النافعة وهم في ذلك لا يأتون إلا منكرا من القول وزورا !

يريدون أن يعيشوا في الماضي المؤلم ويحيوا في ظلمات القرون الوسطى وقد ارتقى البشر وتقدّم حتى الزنوج أما هم فما انفكوا مثالا للجمود والارتجاع ودليلا على التنطع وعمه الرأي.

ويميننا غير حانثة أن وجود أمثال هؤلاء في الأمة لمّا يقضي عليها بالتأخر ويجعل نهايتها الاضمحلال.

غير أن الأمر الذي يزيد في عجب الانسان ويكون باعثا للأسف العميق هو أن نجد من هؤلاء نصيبا لا يستهان به في شبابنا النير الذي عليه نعلق امال نهضتنا بالبلاد وفيه نتعشم بطولة المستقبل وزعامة الغد القريب وانها لحال مؤسفة لا تبشر بغير الشر والدمار.

أجل فقد كنا في الأسبوع الفارط نقرأ مقالين لبعض الدارسين بمعهد كارنو حول مسألة المرأة وتحريرها. وبدل أن نجد فيها الضالة المنشودة من أفكار صحيحة ونظريات صائبة تدل على ذكاء كاتبها الطالب إذا هي بالعكس مملوءة بفارغ الأقوال لصغار مفكري أروبا بدون مناقشة لتلك الأقوال أو إقامة أي دليل على صحتها. أما موضوع المقال الأول فهو يتضمن أن المرأة أضعف عقلا من الرجل وقوة أيضا ولا تقدر على الاشتغال وتحمل الأعمال الشاقة ولذا فمن الخور مساواتها للرجل في أعماله وهذه نظرية ساقطة وفلسفة كاذبة فالمرأة تستطيع أن تقوم بجميع ما يقوم به الرجل من الأعمال إن لم نقل قد تفوقه ولو كان حضرة كاتب المقال المذكور مطلعا على أحوال العالم والأمم الغربية لما قال ذلك ما دام يسمع عن المرأة الغربية انها أخذت تنفذ ما قلناه بالفعل وهذه المرأة الألمانية قد شاركت في أعمال الرجل حتى القيام بوظيف أعوان الشرطة ورجال المطافىء !!

وأما في روسيا فقد تجاوزت إلى أكثر من ذلك وتعاطت الجندية ونبغت فيها إلى درجة قيادة الجيوش.

وتلك حقيقة ناصعة لا يمكن لأي باحث كائن من كان مصادمتها أو محاولة التضليل عنها وقد أبدى الكاتب رأيه في مسألة تعليم المرأة فصرح بكلام مضحك لم يعرف لغيره من قبل وهو قوله أنه يوجد بدون شك في كل عائلة واحد على الأقل متعلّم فهذا هو الذي يتولّى تعليم محارمه ويرى ذلك كافيا للنهوض بالمرأة !!؟

أليست عجيبة هذه النغمة الجديدة وهذا الرأي الحديث... فهو نهاية ما سمعناه عن التضييق على المرأة وسجنها حتى إذا أرادت الخروج للتعليم وصاحبه إذا لا يرى موجبا لتأسيس المدارس النسائية أو ضرورة لتعليم المرأة تعليما تقدر بواسطته على مكافحة أهوال الحياة. فاللهم عفوك من هذه الأفكار الغريبة والآراء الشاذة فإنا لم نتوصّل بعد إلى فهمها.

أما المقال الثاني وهو يعزز الأول في نظريته الوهمية فمنذ شروعنا لتلاوته علمنا أن هم هؤلاء المتعلّمين والمستنيرين هو النقل بدون تثبّت أو روية فقد بني

الأول مقاله على كلام قاله «ميشيل» في كتابه «المرأة» والثاني عن «قاستون راجو» في إحدى مسامراته ولكنهم نقلوه على علاته بدون مقارنته بالواقع والعيان الذي هو أصدق دليل ومن أجل ذلك فهم يقعون في الغلط بسهولة ويعتقدون أنهم مصيبون.

والحق أنهم لا يحكّمون عقولهم أو يبحثون بها مجردة عنكل تأثير أجنبي وحسبهم في ذلك أن هذا القول قال به فلان وهو مشهور !... إن الجمود الذي أبداه من ينتسبون للقلم والتحبير فينا عن مسألة المرأة والهراء الفارغ الذي ملئت به الصحافة لهو معرة وأمر مخجل يورث سبّة لبلادنا في الخارج ويجعل القوم يسخرون منا وينظرون هازئين.

وليعلم هؤلاء المحافظون أن المرأة التونسية لا بد من سفورها في يوم قريب وأن تطورها أمر مقضي لا مفر منه وهذه بوادر السفور قد أخذت تنذر بذلك فخير لنا أن نترك الاحترازات والتحفظات الخسيسة جانبا ونفكر كيف نسعى نحن في سفور فتاتنا سفورا ملائما لآدابنا ومغايرا لصنوف التبرّج الذي نهت عنه شريعة الاسلام وأن نختط لها طريقا مستقيما مناسبا لوضعيتنا كي يحق لنا أن نعلق عليها امالا كبيرة إذا سارت فيه.

أما إن تركناها وشأنها وتمسّكنا بالمعارضة والسخافات فإنها ستخطط لها طريقا بنفسها قد لا يكون موافقا لما نرجوه نحن. وهكذا نحن المسلمين تنذرنا الأيام فلا نعبأ بها إلى أن تصادمنا الحقيقة المتحجّرة وحينئذ نبقى مبهوتين لا نقدر على تحريك ساكن أو عمل شيء ما في هذا السبيل وهو الأمر الذي نخشاه ونحذر الناس من الوقوع فيه واللبيب من احتاط للكارثة قبل وقوعها واتخذ من غيره واعظا وعبرة.

(*) جريدة «الصواب» 20 أفريل 1928

حركة التجديد في الشرق

إن الانقلاب التركي الذي قام به بطل أنقرة مصطفى كمال قد كان نافخا لروح جديدة في الأقطار الشرقية وداعيا لانتباه ملوك الشرق وتبين مركزهم الذي أصبح حرجا وعلى شفير هار، بما يوجده في تلك الأقطار من السعي المتواصل نحو التجديد والاصلاح الذي تتفاوت درجاته بنسبة استعداد الشعب وعراقته في الحضارة والتطور فالثورة التركية ضد القديم يعود لها الفضل فيما نراه يبدو في الشرق اليوم من إشارات التحفّز للنهوض وعلامات الحياة.

تهتم شركات الأخبار في هذه الأيام بإذاعة ما يقوم به الملك العبقري امان الله ملك الأفغان من الاصلاح والتجديد في مملكته الفتيّة وقد أخبرتنا بأنه رأى أن أوكد عمل يتحتّم على من يود أن يخلق من بلاده وأمته شعبا ناهضا قويا صالحا لأن يثبت أمام هذا التناحر الواقع بين أمم الغرب، إنما هو منح تلك البلاد الحياة الدستورية وتدريبها على المشاركة في إدارة شؤونها حتى تتعود التفكير في مصالحها معينة له على البحث فيما يجلب للوطن العز والسيادة بين البلاد الأخرى.

وفعلا فقد عقد مؤتمر الشعب في كابول في شهر سبتمبر لتقرير الاصلاحات الجديدة وقد قرر إنشاء برلمان أفغاني مؤلف من 150 نائبا ينتخبون انتخابا حرّا لمدة ثلاث سنوات وقرر تعميم التعليم الاجباري العسكري بحيث ان جميع الرجال من سن السابعة عشرة يجبرون على التمرين العسكري ومدة هذا التعليم

ثلاث سنوات. وملك الأفغان يهتم بتنظيم القضاء وإرسال البعثات إلى مختلف الأقطار وقد صرح وزير الحربية في مؤتمر الشعب الآنف الذكر بأن مائتين من الضباط الأفغانيين يتلقّون الآن العلوم الحربية في روسيا وإيطاليا وفرنسا وألمانيا وأن الحكومة سترسل 20 ضابطا آخرين إلى انقلترا للغرض نفسه. وعلمنا أخيرا أن بعثة أفغانية مؤلّفة من 115 طالبا قد أرسلت من بينها 15 فتاة تتراوح أعمرهنّ بين 9 و16 سنة للدراسة في مختلف الفنون والعلوم بمدارس تركيا ومعاهدها.

أما رضا خان شاه فارس فهو لا يقل عن زميليه كمال وامان الله شغفا بتطوير شعبه وجعله شعبا قويا بارزا بين شعوب العالم وهو بطل متطور ومهتم بإرسال البعثات العلمية لمختلف الأقطار لتثقيف أذهان الشبيبة الفارسية حتى ينشأ منها رجال خبيرون يكونون له عضدا متينا في تنفيذ مشروع الاصلاح والتمدين وهذه آخر بعثة كانت لباريس متركّبة من 103 طالبا أوفدتهم حكومته على نفقتها وسيلتحق البعض منهم بالكليات والبقية يوزعون على مختلف مدارس جهات فرنسا كليون ومونبيلي واسترازبورغ وبوردو وغيرها.

وقد عرض على المجلس النيابي لوائح جديدة حذا فيها حذو تركيا في أساليب الاصلاح سنأتي على تفصيلها في فرصة أخرى.

هذه نبذة مما تذيعه شركات الأخبار عن حركة التجديد بأفغانستان وإيران وهي حركة واسعة النطاق يرمقها المفكرون في الشرق بعين الاكبار والاعجاب ولمثل هذا كان اعتناء أمراء الشرق بالرحلات يعودون إلى بلادهم مملوئي الوطاب بالتشريعات المفيدة والاصلاحات ذات الأثر المبين.

وبما تقدّم يظهر جليا أن الشرق متحفز إلى مجاراة الغرب واقتباس مدنيته وان المدنية المعول عليها في بلاد الشرق هي المدنية الفرنسية ولقد أوسعت فرنسا صدرها وفتحت ذراعيها لقبول ارساليات الشرق والوفود الواردة على بلادها وهو سلوك حسن يا حبذا لو توخته في تعليمنا وسلكته معنا بدل العراقيل والمثبطات التي تقف في وجوهنا تبعا للسياسة الاستعمارية التي ترى الخطر الداهم في انتشار العلم وارتفاع لوائه في أقطار إفريقيا الشمالية.

ورغما عن كل هذا الاصلاح الذي يقوم به أمان الله ورضا خان فإنا نسمع أنه لا يروق في نظر شرذمة رجعية هنا، دأبها النّعيق بسبب وبدونه وترى بين حين وآخر نقدا لهما في صحف كل غايتها أن يهتف لها اللفيف الساذج وما عليها إذا كان في مسايرتها له جناية على الوطن ومغالطة للضمير والذمة التي تفرض على الانسان الصراحة فيما فيه الصلاح والسعادة للمجموع وإن كان في ذلك مصادقة للبساط، إذ لو كان الشعب يميز بين الحسن والقبيح ويعرف الخبيث من الطيب لما احتاج إلى صحافة ومرشدين يقومون بمهمة إنارة الطريق له وإيضاح وسائل التقدم والرّقيّ، وقد بلغ الجنون بهذه الطائفة المذبذبة حدا أصبح الانتقاد على منقذ ومصلح عظيم كامان الله أو رضا خان شيئا بسيطا بيد من شاء وكيف شاء ويكفي أن تقرأ كتابة لأحدهم بعنوان «أنا..وملك الأفغان» ! لتعلم مقدار ما في رؤوس هؤلاء من المس والهوس.

فإنك لا تكاد تملك نفسك من الضحك الذي يعقبه أسفك الشديد عندما يفيدك ــ باعتناء زائد ــ أنه ليس بينه وبين ملك الأفغان أغراض شخصية ثم يسترسل في مخاطبة وإصدار الأوامر إليه بلهجة أكثر شبها بلهجة أحد قاطني مستشفى المجانين عندما يتخيل نفسه قيصر العظيم.

وهذه الشرذمة لا تخجل أن تسمي نفسها جماعة المصلحين ويدعي كاتب هذا الكلام رئاستها ولكن ليس من تعليق على هذا الادعاء سوى ترديد المثل العربي «إذا كان الغراب دليل قوم...!»

جريدة «الصواب» سنة 1928.

ذكرى قاسم أمين

وافتنا صحف مصر تحمل نبأ الاحتفال الباهر الذي أقامته جمعية «الاتحاد النسائي» بمشاركة الطبقة المفكرة من الرجال إحياء لذكرى المصلح الكبير المغفور له قاسم أمين بمناسبة مرور عشرين سنة على وفاته. وقد أفاض فيه الخطباء والخطيبات القول في تعديد آثار الفقيد المحمودة وأياديه البيضاء على المرأة المصرية وما انتهت إليه من رقي وتحرير بفضل دعوته التي لم يسمح له القدر بمشاهدة مفعولها ورؤية نتيجة جهاده المقدس. وإذا كان القارىء في شوق ولا يعرف شيئا عن هذا البطل العظيم فها نحن نقص عليه طرفا من ذلك في إيجاز مفيد :

قاسم أمين رجل القضاء والقانون المحنّك ورسول الاصلاح الاجتماعي هو نصير المرأة المسلمة والداعي إلى تحريرها من اصفاد الجهل الفولاذية وإخراجها من ظلمة الاهمال واحتقار الرجل.

نشأ قاسم أمين وتعلّم بمدارس الحكومة المصرية وكان أثناء الدرس تبدو عليه مخائل النجابة والعبقرية وإذا أتم تعليمه الابتدائي أرسلته الحكومة إلى أروبا لاتمام دروسه العليا. فدرس الحقوق بفرنسا وأحرز على شهادتها ثم عاد إلى مصر يضطرم حسرة على تأخّر أمته بالنسبة لما رآه في العواصم الأروبية من مظاهر الحياة وآثار النهوض. وعلم أن واجبه نحو وطنه يحتّم عليه السعي في جلب سعادته وإصلاح ما تداعى من بنيانه فرأى ــ وقد أصاب ــ أنه لا يتسنّى له عمل شيء

ما قبل إصلاح العائلة إذ منها تتكوّن الأمة ولا تصلح العائلة إلا بإصلاح المرأة وهي الأمة مصغّرة والكلّية الأولى التي تتكيّف طبق مباديها نفسيات الشعوب.

رأى ذلك ودقّق فيه بعين المحنّك فرفع صوته مطالبا بالاعتناء بالمرأة وإعطائها قسطها في الحياة وهو أول صوت ارتفع في الشرق بهذه النغمة التي ذعرت لها جماعة المحافظين أو قل الجامدين فشنوا غارة شعواء ضد فكرته بل وضد شخصه أيضا ! وكان يتحمل هجماتهم تلك بثبات جأس ويقارعهم بشجاعة وإقدام امتاز بهما في إبداء رأيه بحرية وصراحة.

على أن بعض الناس لا زال يظنّ أن دعوة السفور أمر بالتهتّك والتبرج وإعانة على الدعارة والفساد وهو غلط ناشيء عن جمود أفكارهم وغشاوة من تقديس القديم حالت دون أعينهم وضياء الحقيقة البسام. فالسفور — لو تأملوا — حجاب لتلك المساوي وسد منيع يقف بين الفتاة وطريق الفساد.

وإني لناقل إلى القراء كلمة في هذا المعنى لزعيمة النهضة النسائية هدى شعراوي قالت : «إن دعوة السفور ما كانت يوما لتنطوي على هذا التبرّج وهذا السلوك الذي ننكره فإذا ظنّ ظانّ أن من السفور ما تفعل بعض سيداتنا — مع كثير من الأسف — من الابتذال في مجالس الرجال والرقص ونحوه فهو في أشدّ الضلال. وإذا كان بعض السيّدات قد تطرّفن في سلوكهنّ فما كان ذلك إلا نتيجة التطوّر الاجتماعي ونحن إذا دعونا إلى السفور وعملنا بجهدنا على تحقيقه فإنما نفعل ذلك لنكبح جماح هذا التطوّر ونسير بالمرأة الشرقية في الطريق النافع المأمون».

هذا ما تقوله زعيمة الحركة النسائية بمصر والمجاهدة بعد قاسم أمين في رفع شأن المرأة المسلمة.

جريدة «الصواب» سنة 1928.

نحن والجامدون

أريد اليوم أن أداعب أصحابنا الجامدين فقد طال عهدنا بهم عن مثل هذه المداعبة اللطيفة وتلك المناوشة التي ألفوها منا واعتادوا أن يخلقوا منها موضوعا لما يسردونه لقرائهم المساكين ومداعبة هذا اليوم تنحصر في محاسبة بسيطة بيننا وبينهم عما جناه كل واحد في العام الفارط من انتصار مذهبه أو سقوطه في هاوية ليس لها قرار.

ولا جناح عليّ إذا أخبرت هؤلاء الأصحاب القدامى... بأن صيحاتهم المتكررة ضد التجديد وكل شيء جديد ولعابهم السائل بأنواع المخدرات والسموم كل هذا لم يجدهم نفعا ولم يكن ليحول بين الرؤوس والتفكير الحديث أو يقف بيننا وما ندعو إليه من تطوير محتوم وتجديد مقضي.

ففي العام الفارط كتبنا في إصلاح الكلية الزيتونية فقام البعض ضدّنا وكتب ينفر الناس من هذا الاصلاح ويصوره في شكل مبغض وهيئة مستنكرة. ولكن ما قول هذا الذي أراد الاغتصاب الأخير وهتاف التلاميذ في كلمة واحدة : «لا بدّ من الاصلاح والتجديد !».

وفي العام الماضي طرقنا موضوع تحرير المرأة وسفورها فملأ ضفادع الاجتماع بنقيقهم في البلاد يرددون كلمة الكفر والالحاد وقد ظنوا أنهم بنقيقهم قد ضغطوا على الأفكار وحوّلوها عن تلقي فكرتنا وتأييدها. ولكن ها هي الأيام قد

كذبت ظنونهم وأبانت لهم هزيمتهم في صورة واضحة بقيام امرأة مسلمة من متعلماتنا في الأيام الأخيرة بمسامرة في الموضوع وإصداعها بوجوب تثقيف المرأة وتحريرها.

وفي العام الماضي نفسه تناولنا موضوع التجديد وحرية الفكر من وجوب البحث والتعمق في كل قديم وتحكيم العقل المجرّد في غير وجل ولا تقييد وقد أيدنا مروّجي التفكير الحر في الشرق كالدكتور الأستاذ طه حسين فاتهمونا يومئذ بأنّا نرمي إلى تحوير الشريعة وندعو إلى المروق وها أننا منذ أيام قريبة كنا نستمع في نادي قدماء الصادقيّة للسيد محمد الصالح المهيدي وهو يلقي مسامرة شيّقة في حياة امرىء القيس وقد تناول فيها البحث على النمط الحديث ولم ير حرجا من أن يصادق الدكتور طه حسين ـــ أول من بحث في الأدب العربي بهذا النمط ـــ على نظرياته وإشكالاته التي أوردها بخصوص وجود امرىء القيس والشعر الجاهلي من أصله مدعما لها بما أوقفه عليه البحث والتنقيب. وهي جرأة من هذا السيد قد تولّدت عن حركة الفكر الأخيرة ببلادنا ودعوة التجديد النشيطة.

والقارىء الكريم يرى من هذه المحاسبة البسيطة في مسائل العام الماضي تقهقر الجامدين وأنصار القديم وفشلهم ويحس بمقدار النجاح السريع الذي أحرزت عليه فكرة التجديد والتطور من كتابات بعض كتاب صحفنا الأسبوعية.

وعلى ذكر المسامرة الأخيرة لا أرى بدّا من تسطير كلمة تشجيع واستحسان لهذا النوع الطريف من البحث المنتج.

فإن كل من درس الأدب العربي وتاريخه وتصفّح كتب القدماء المؤلّفة في هذا الغرض إلا ورجع يندب الأوقات الثمينة التي أضاعها سدى في هذا العبث الذي لا يعود بفائدة حسنة ولا يسمح بإصدار حكم أو إبداء فكرة صحيحة في هذا الأدب وذلك للاضطراب الفادح به والتشويش الممل وان المطالع ليجد نفسه قد وقع في مجاهل لا انتهاء لها ولا منفذ ينبعث منه النور.

وكل هاته الأسباب قد صرفت الشبيبة الشرقية عن دراسته والالمام به واضطرتها للتعلق بأدب الغرب المنظّم والمضبوط فكلفت به وأعلنت العداء والنفور

من هذا الأدب الذي يمثل مجدها ويربط ماضيها بحاضرها وفي ذلك بلاد على الشرق عظيم نسجل مسؤولياته على أدباء الشرق الذي لم يعتنوا بتراثهم الفكري ليضبطوه وينظمونه على أحدث الأساليب التي انتهى إليها فن النقد الأدبي اليوم ويعمدون إليه بالغربلة والتصفية حتى يجعلوا من هذه الأنقاض المتراكمة أدبا حيا قادرا على تبوء مكانة سامية بين الآداب العالمية.

وأعظم واجب على أدباء الشرق أن يصفّوا أدبهم من تلك المفتريات التي وضعها القصاصون وانتحلوها في زمن الفتنة الكبرى بين المسلمين والتي انقسم فيها هؤلاء إلى شيع كانت تعمل للسياسة باسم الدين وتضع من الأخبار ما يوافق مذاهبها السياسية، وان يسلكوا في عملهم هذا مسلك أهل الحديث وعصره ووضعهم لفن جديد هو فن مصطلح الحديث.

على أن الطريقة الحديثة التي بحث بها الأستاذ طه حسين الأدب العربي من أحسن الطرق المنتجة وهي طريقة الفيلسوف ديكارت الذي يشك في كل شيء ولا يخضع إلا لأحكام العقل.

إني أشكر للسيد محمد الصالح المهيدي جرأته وإقدامه وأشكر له اتخاذه الطريقة المتقدّمة مقياسا لبحثه الذي وإن لم نقتنع حتى الآن بصحة نتائجه لكن يكفيه فائدة أنه أوجد الشك في نفوس المستمعين وبعثهم على التفكير والبحث.

وما أحوجنا في حياتنا الحاضرة ونحن نتطلّع إلى النهوض ونعمل على إيجاد ثقافة جديدة، إلى الثوارت الفكرية ضد القديم وتصويب معاول الهدم نحو هذه الهياكل المشادة التي صبغ عليها القدم مسحة من الاجلال والرهبة فلا يكاد يمسها أحد إلا ليقبّلها ويقدّسها لأننا نريد أن نبني حياتنا المستقبلة على أسس صحيحة ودعائم ثابتة ولا يمكننا ذلك إلا بتصويب المعاول نحو هاتك الهياكل نختبر صحتها أو نذرّها كالهباء المنثور.

(*) جريدة «الصواب» لـ18 جانفي 1929.

حاجتنا الكبرى إلى نهضة اقتصادية

منذ سنوات قليلة اتجهت أنظار التونسيين نحو التعليم العالي بعض الاتجاه وأدركوا الفوائد الجمة التي يجنيها الوطن من وراء إرسال البعثات إلى البلاد الأجنبية فاعتنوا بها نوع اعتناء. ولكن رغما من ذلك فإن هذه الارساليات كانت فائدتها طفيفة وغير صالحة لأن يشاد على كواهل أفرادها صرح النهضة التي نسعى لايجادها ببلادنا.

وبيان ذلك : إن أنظار أولياء التلاميذ وحتى التلاميذ أنفسهم قد اتجهت نحو نقطة واحدة وانحصرت في دائرة محدودة من العلوم والفنون ويمكن لكل أحد أن يدرك هذا إذا تتبع سير البعثات ونتائجها فإنك تجد المتخرّجين من كليات فرنسا ـــ على قلتهم قد برزوا كلهم في الطب أو المحاماة وقفت أنظارهم عندهما فنسج كل التلاميذ الذين أتيح لهم الذهاب إلى فرنسا على خطتهم.

أصبح همّ التلميذ الذي يزاول التعليم الثانوي بتونس هو التفكير كيف يصير طبيبا، أو محاميا... دع أنه يصرف جهده ويحصر مطالعاته في أحد ذنيك الفنّين الذين يريد التخصص في أحدهما ضاربا صفحا عن بقية الفنون الأخرى التي نحن بحاجة ماسة إليها.

ونحن وإن كنا لم نستغن بعد عن الأطباء والمحامين حيث عددهم لم يتوافر عندنا بصورة تامة لكننا في حاجة بإزاء هؤلاء إلى ثلة من الأخصائيين في بقية

العلوم الأخرى التي أصبح فقدانها من بلادنا معطلا لسير النهضة إذ أهم شيء يتأكد أن تتجه إليه أنظار الطالب التونسي وتحتاج إليه البلاد احتياجا كبيرا إنما هو الاقتصاد بجميع فروعه وما ينطوي تحت هذه العبارة من مفاهيم.

بلادنا زراعية قبل كل شيء فهل لنا أفراد متخصصون في الزراعة، وما وصل إليه العلم الحديث في كيفية خدمتها وانمائها حتى يقوموا بخدمة أراضي بلادهم الشاسعة التي تفطّن الاستعماريون لهذا القصر الموجود فيها فاتخذوه ذريعة لاغتصاب أراضينا بدعوى أننا غير قادرين على خدمتها وأننا لا نحسن استثمارها والقيام عليها ؟

وفي بلادنا مدرستان فلاحيّتان وأخرى للزياتين فلماذا لا يبعث التونسيون بأبنائهم إلى أحضان هاته المدارس ومنها إلى فرنسا حيث يتممون معلوماتهم الفنية ويعودون إلى هنا أين تنتظرهم أعمال كبيرة لم تجد من يقوم بها لما يسود على القوم من جهل وقلة إدراك ؟...

نريد من التونسي أن يشارك في كل الأعمال ويضرب بسهم في ميدان الصناعة وهذا يسير جدا ذلك أنه يوجد مدرسة الفنون والصنائع التي شرحنا نظامها وما يدرّس بها في العام الفارط بينما لايوجد بها منهم إلا أقلّية ضئيلة حتى ان الذين حصلوا على شهادتها في هذه السنة أربعة فقط سوف يستغل الأجنبي مواهبهم لأنهم لم يعتزموا اتمام تعليمهم بفرنسا والحصول على شهادة الهندسة النهائية لقلة ذات اليد ولعدم وجود مشاريع وطنية تشغلهم وتنتفع بمواهبهم وهناك شيء ثالث يجب الاهتمام به كثيرا ألا وهو التجارة التي نبغ فيها الأجانب فملأوا بلادنا بدكاكينهم ومغازاتهم فذهب سيل عظيم من ثروتنا إلى جيوبهم بينما نجد تجّارنا الوطنيين في أسوأ الحالات وكثيرا ما يكون مآلهم الافلاس ذلك لأنهم لم يتعاطوها عن فن ودراسة بل عن مجرد محاجاة وتقليد وبدون تبصّر ودراية.

فلو تخصص أفراد من بين البعثات التي تزاول التعليم العالي بهذا الفنّ النافع فدرسوه بمدارسه العليا إذن لتحسنت الحالة ولأمكن لتجّارنا أن يزاحموا وينافسوا غيرهم ولتبوأت التجارة الوطنية مكانا عاليا حذو منافستها الأجنبية.

كل هذه أشياء يجب الاهتمام بها ولكن التونسيين في غفلة قد قعدت بهم عن إدراك كل غاية وحالت بينهم وبين التقدّم والنجاح في الحياة.

فلتتجه أنظار القادة المفكرين إلى هذه الأشياء التي تعوز الوطن وليسعوا جهدهم في تدعيم النهضة الاقتصادية إذ هي في نظر الباحث الخبير أساس النهضات ولا يمكن وجود نهضة أخرى بدونها فلا يصرفوا الوقت فيما لا يعود على الأمة بنفع لأن البلاد الفقيرة من جمعيات احتياطية تساعد تجارها وفلاحيها وشركات تعاونية وبنوك وطنية ومعامل كبرى ومشاريع اقتصادية لا حق لشعبها أن يعدّ نفسه من شعوب العالم ولا هو جدير بنعمة الحياة والحرية.

جريدة «الصواب» لـ26 جويلية 1929

الصحة العامة وواجب الحكومة والشعب

إن من ينظر إلى تعداد الوفيات والولادات الذي تنشره الصحافة يوميا عن احصائيات البلدية ويقارن بينها ليأخذه الرعب ويستفزّه الفزع لما عسى أن تنتهي إليه هذه البلاد من سوء العقبى ووخامة المصير لا سيما عندما يلاحظ هذه الكثرة الغريبة في عدد الموتى من المواليد الصغار السن خصوصا.

ونحن أمام هذه الاحصائيات المهددة باضمحلال الشعب التونسي إذا استمر الحال على هذا المنوال نريد أن نتبيّن أسبابها ونتفهّم دواعيها وعلّاقاتها إذا ما وقفنا إلى اكتناه السر أبدينا ما نراه لازما لايقاف خطرها المتفاقم وشرّها المستطير.

يقول البعض ان الأزمة الحاضرة(*) التي خنقت البلاد وأتت على الأخضر واليابس هي السبب في ازدياد عدد الوفيات زيادة فاحشة. فإن أكثر الأموات إنما يموتون جوعا من جرّاء الضائقة المخيّمة والبطالة المتفشّية.

يقولون هكذا ويقفون عند هذا الحد والمتأمّل من هذا التعليل يجده وجيها وذا نصيب كبير من المعقولية. ولكنه برغم ذلك ليس هو السبب الرئيسي أو الداعي الوحيد بل هناك ما هو أهم وأبعد أثرا سواء في الأزمة أو الرخاء هناك مصيبة أدهى وأمرّ هي جهل الأمة بقواعد حفظ الصحة وتقصير حكومة

(*) سنة 1932.

الاستعمار في القيام بالدعاية الصحية التي نرى حكومات البلدان الأخرى تبذل في سبيلها كل غال ونفيس وتتفنن في أساليبها وطرق بثها بكل ما أوتيت من حزم تقديرًا لواجب حماية الأرواح وحفظ النفوس وهو واجب تفرضه الانسانية إذا غضينا عن الدوافع الأخرى وعلمنا منها أن الطبّ الوقائي هو الغرض الأسمى من الطب جميعه.

لعل القراء قد طالعوا ما ينشره اليوم ديوان حفظ الصحة الاجتماعية والطب الاحتياطي من البيانات المدققة والاحصائيات التي تبرهن على مقدار الزيادة في وفيات المواليد من سنة لأخرى. ولننقل هنا فقرة واحدة من نشرياته لنرى درجة الخطر الذي أخذ يتفاقم يوما فيوما دون أن نرى مقاومة جدية أو احتياطا فعليا ضد نتائجه ونهايته جاء في إحدى تلك النشريات عن بيان عدد الأموات من المواليد بداء الزهري ما يلي : «من عام 1909 إلى عام 1926 بلغ في فرنسا 38 في مقابلة ألف مولود حي وبلغ في العام نفسه فيما يخص السكان المسلمين ما يساوي تقريبا ثلاث مرات أكثر في تونس والظاهر أن النسبة أكثر بداخل المملكة» !

ومن هنا يظهر فساد الحالة وإلى أي حد وصل وهو في نوع واحد من الأمراض وحتى عام 1926 فقط، وأظن أن السكوت عن ذلك أمر لا يشرّف ولا يمكن إزالته بسنّ القانون أيضا.

وإذن فإنّا نقترح طريقا موصلا وهو نشر الدعاية الصحية في طول البلاد وعرضها بصورة يمكن معها إفهام الشخص العادي وخصوصا البدوي الأمي ما يلزمه من الغذاء والملبس والمشرب عن طريق دروس ومحاضرات يقوم بها الأطباء تشرح قواعد حفظ الصحة البسيطة وكذلك أن تعمد الحكومة إلى إيجاد السينما المتنقلة لتبين له بواسطتها مضرة تلوث المياه والوقاية من الأمراض المعدية وبالنشريات المحلّات بالصور الجميلة الجذّابة وان تعمل لتنفيذ مشروع بنايات رخيصة مشيدة على أساس الصحة والهواء النقي ثم أن لا تقتصر هذه الدعاية على الأمراض الوبائية بل تشمل كل ما له علاقة بالصحة العامة لتغذية الطفل وتربيته في حاجة إلى دعاية عظمى وجهود كبيرة.

كما يجب على الحكومة أن تلبّي اقتراح ديوان حفظ الصحة الاجتماعية الذي يشير بالتكثير من المستوصفات ومعامل الأدوية ومن مصالح قبول المرضى المعدة لمعالجة الأمهات والأطفال.

أما من حيث الشعب فعليه واجب تجديد العيادات الطبية بين آونة وأخرى كلما شعر بانحراق أو ألم فقد كفانا هذا الاهمال والتّساهل في أمر الصحة وهي كنز الانسان الثمين في الحياة.

هذا ما نراه لتلافي الخطر المحدّق ونلح في الاسراع بإنجازه وندعو الحكومة ونوابنا بالمجلس الكبير إلى الاعتناء بهذه المسألة وارصاد المبالغ الوفيرة لها من الميزانية إذ هي من المسائل الرئيسية التي ينبغي تقديمها على كل شيء آخر.
ونحن في انتظار ما سيجدّ على أحر من الجمر.

جـريـدة «الصـواب» 29 أفريل 1932.

واجب قادة الرأي

لعل الأحداث الأخيرة التي هزت الأمة العربية هزا في هذه السنوات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية حتى كادت تزرع التخاذل واليأس في نفوس أبنائها.

نقول لعل هذه الأحداث تكون عبرة للعرب والمسلمين وتفتح عيونهم على الحقائق وتزيل من عقولهم الغرارة والايمان بأن السماء تمطر ذهبا وفضّة وان الدهر يرحم القاعدين !

فما نيل الرغائب بالتمنّي ولا تحقيق الأهداف بالتواكل والدعاء.

لقد خسرنا معركة بفلسطين ولكننا لم نخسر لحد الآن حرب العروبة الكبرى في سبيل التحرر والانعتاق العام.

وأسباب خسارتنا واضحة للجميع فلنحارب الأطماع الخاصة في نفوسنا ولنقض على جرثومة الأنانية ولنصدع بالحق في الحكم على المواقف التي تتخذ باسم الشعوب العربية ولنترك النفاق والمداجاة جانبا. ولنقدم الأدوية المريرة الحاسمة في غير غمغمة حتى نعرف أين نضع أرجلنا. فمهما عظمت مرارة الدواء إلا كان التغافل عن الدّاء أدهى وأمر. وليس أفضع من المغالطة وتحاشي المجاهرة بالشر الكمين وهذا واجب الكتاب وقادة الرأي العام إن كانوا حقا في رسالتهم مخلصين.

جريدة «الصريح» عدد 3 لـ6 فيفري 1949.

انتبـــه يـا شـعـــب

لعل المسلمين قد أدركوا بعد كارثة فلسطين أن السبب الأساسي لتلك المأساة هو تسرّب اليهود إلى فلسطين من مختلف أصقاع المعمورة واستيلاؤهم على الأراضي بشتى الطرق وأهمها الشراء من العرب المالكين لها وتساهل هؤلاء الأخيرين في البيع مهما عرض عليهم ثمن ظنوا أنه مرتفع جدا وان الأراضي التي يفرطون فيها لا قيمة لها. وما درى أولئك أن الصهيونيين كانوا يرمون من وراء شرائهم الأراضي الفلسطينية إلى غاية بعيدة وهي اكتساح العرب وإبعادهم عن مستقرّهم حتى يصيروا في يوم من الأيام غرباء عن أرضهم وأجراء عند المالكين النازحين. وهكذا كان اليهود يشترون حتى السباخ والأراضي الغامرة ويبذلون فيها الأموال الطائلة إلى أن حققوا حلمهم وأنشأوا دولتهم وهي الآن محط الرعاية من الدول الأروبية وحتى من بعض الدول العربية التي هادنتها وأبرمت معها مواثيق الصلح.

وهناك ظاهرة غريبة تسير عليها المصالح الاستعمارية اعتمادا على قوانين الانتزاع وهي استعمال العقارات المنتزعة لا فيما انتزعت من أجله وهو المصلحة العامة بل كثيرا ما يقع العدول عن ذلك وتبقى الأرض بيد المصلحة التي انتزعتها تستغلها لفائدتها الخاصة ولدينا أمثلة كثيرة ناطقة من هذا النوع سنأتي على بعضها مدللا بالأرقام والوثائق التاريخية في فرصة أخرى إنما نكتفي اليوم بأن نسجل هاته المظالم تسجيلا خاطفا ليعلم عموم التونسيين ما يدبّر لهم في الخفاء

وليفتحوا عيونهم ويرهفوا اذانهم للمكائد الاستعمارية وليعملوا أنهم مهما تساهلوا في بيع أراضيهم أو لم ينازعوا في إخراجها من أيديهم فإن كارثة فلسطين قد لاقت العطف والرعاية إلى حد ما من الدول العربية المحيطة بها أما نحن فمنقطعون عن العالم العربي يحول بيننا وبينه بحر ضخم وقوة استعمارية عاتية تساندها قوات رأسمالية جبارة تنتظر الفرص السانحة للانقضاض علينا واستثمار خيراتنا وامتلاك رقابنا إذا نحن فرطنا في أرضنا.

جريدة «الصريح» 26 مارس 1949.

إن الله لا يغيّر ما بقوم

يزداد نشاط الشياطين كلما أحسوا بوحدة الأمة وتكتلها وتصلبها في مطالبها المشروعة إذ يسوءهم الوفاق ولا يعيشون إلا من وراء الخلف وبث العداوة والبغضاء وذلك هو دأب ضعفاء الايمان الذين يعتقدون أن حقهم في الحياة مربوط بحظوظ المستعمر الذي يخدمون ركابه.

واجبنا العمل لرصّ صفوفنا وإصلاح شؤوننا والكفاح لخلق هذا الشعب المتطلّع للحرية وبناء مستقبله المجيد المدعم الثابت الأركان ولنترك الترهات جانبا فإن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيّروا ما بأنفسهم.

أيها الشعب التونسي إيّاك أن تغترّ بما يذيعه المرجفون أعداؤك الضالون المظلون ولتعلم أن الحقوق تؤخذ ولا تعطى فلتوحّد صفوفك وتحافظ على وحدتك ولتعمل بجدّ نحو الغاية المنشودة.

لتكن قدوتك الشعوب التي تحررت بالعمل فالقول لا يجدي ولا ينفع.

جريدة «الصريح» عدد 48 لـ 14 جانفي 1950

الحيــاة عقيــدة

والذين ينتصبون للجهاد عن عقيدة الشعب يرفعون إلى صفوف القديسين ما استماتوا وصابروا في جهادهم عن تلك العقيدة.

ثم هم ينزلون إلى درك المجرمين والقتلة ان مالت نفوسهم الى الانتفاع بمباهج الحياة ووسائل السلطان وبريق الألقاب الرسمية فانهزموا أمام أنفسهم وتسامحوا في عقيدتهم فأصبحت لديهم وسيلة لا غاية.

والشعوب مهما كانت جاهلة غبيّة غرة تؤخذ بفخم الألفاظ وتهتز مع الاحساس الفياض ما تزال هي البانية لعروش القداسة للمكافحين وهي المحطة لاصنامهم الجوفاء عندما تتضح لها نور اليقن ويصح ان أولئك الذين نصبتهم للعبادة ظهروا شياطين.

هذه حقيقة أخرى يجب أن لا تغيب عن العاملين وفي صفحات التاريخ مئات الشواهد والأحداث المنبئة بذلك، فلنحذر جميعا غضب الشعوب سواء كنا حكاما أو مكافحين.

جريدة «الصريح» عدد 54 ليوم الجمعة 24 فيفري 1950.

دروس الحياة

قد تتراقص الأطماع وتتحرك الجبلّة البشرية القائمة على الضعف والانخذال في صدر الانسان فيزوغ عن مبادئه ويتجرّد من حلل شرفه.

ولكن يد الدهر تصفعه بما تهيء له من حوادث تصطدمه فتذهب زيف البريق الذي تراقى أمام عينيه فيعود الى مقدساته كما يعود الابن العاثر الملطوم الى صدر أمه يطلب فيه الاطمئنان والحماية.

ولكن هذه الحالة قد تعرض مرات للمرء. فإن استطاع الاحتفاظ بثباته واختزن عقله من عبرة الحوادث الماضية ما يعصمه من الانزلاق فقد نجا وكان الرجل المعتمد.

وان اختلّ توازنه وغرّه البريق مرة أخرى فهو المخذول الفاشل وأمه هاوية.

جريدة «الصريح» العدد 57 لـ16 أفريل 1950.

لنصارح أنفسنا بعيوبنا

في مثل هذا اليوم من سنة 1881 فرضت علينا الحماية بقوّة الحديد والنار.

وتطورّت خلال هذه السنين الطويلة فابتلعت سيادتنا ومسخت ذاتيتنا وأصبحت حكما مباشرا واستعمارا مقنعا.

على أن هذه الكارثة الحبلى لم تحصل بنا اعتباطا فقد مهّد لها كبراؤنا في ذلك العصر بما اقترفوا في حق الشعب من جرائم وما ألحقوا بالدولة من انحلال وضعف فشقينا نتيجة صنيع كبرائنا الذين أضلّونا السبيل.

واليوم فلنمنع أخلاقهم من رمينا في الجحيم والعمل لتأييد هذا الوضع المزري، وعندما ننجح في هذا السبيل تتحطم الحماية ويسقط الاستعمار.

وإنّا لناجحون ما دمنا لا نغضهي وما دمنا نقول الحق في وجه أي كان ونصارح أنفسنا بعيوبنا ونتكتل في سبيل الوطن.

جريدة «الصريح» العدد 60 في 12 ماي 1950.

لا ورد من غير شــوك

أرأيت الى هذا البستاني الكادح الدائب العمل، المتواصل النشاط، يغرس طاقات الورد الزكي، ويسمد التربة ويسقي الشجيرات، ويزيل عنها في صبر وجلد الحشرات السامة والأدواء القاتلة. أرأيت اليه وهو يمد يده إليك بهذه الباقة العبقة من الورد المختلف الألوان العذب الشميم الزكي العرف، فنهش لها وتنتعش بريحها العطر وتسر بوضعها في قاعة استقبالاتك، شاكرا لذلك الغارس الكادح ثمرته النضرة.

انظر إلى يده تلك وقد خدشتها الندوب والجراحات نتيجة الكدح والمثابرة على غرس هاتيك الورود وجنيها.

هكذا الحركات الاصلاحية والأعمال التحريرية المنبهة الهدامة للخور والشر البانية للخير على الأنقاض المبشرة بحياة العزة والكرامة لا بد لممارسها من جراحات وندوب تلحق عرضه وكرامته وجهاده من طرف السذج وعمي القلوب. لا ورد من غير شوك. ولا كفاح بدون تعرض للأخطار، من عبيد الذل والصغار.

جـريـدة «الصـريـح» في 26 ماي 1950

إنْ أردتم البناء على أسس متيـن

لا يستطيع أحد نكران انتباه الوعي القومي في جيلنا الحاضر ولا يمكن جحود اضطرام شعلة النهضة المباركة في صدور وأذهان جميع طبقات الأمة فهناك انتباه وتحرّك في عالم المرأة، وعالم التجّار والفلّاحين والطلبة، والصحافة وميادين الفكر والثقافة. وهناك اندفاع حي جارف إلى الأمام.

وهناك خصومات في هذه الميادين جميعها نحرص ونؤمل أن تكون شريفة ولكن كل هذه الظواهر الصادقة السارة يجب حمايتها من السطحية والزيف ويجب السعي المتواصل الخالص الأمين لأن تكون عميقة ثابتة وان يتحاشى في تغذيتها وتوجيهها الركون الى حب الذات والشهرة والانتفاع ضنا بكرامة الوطن ومستقبله. أغرسوا في نفوس أتباعكم أيها المسؤولون حبّ التفهّم والإدراك وكرهوا إليهم التصفيق والاستحسان الأعمى الخطير، إن أردتم البناء على أساس متين.

جريدة «الصريح» (ماي سنة 1950)

أسلحتهم هي عيوبنا

قال ﷺ ذات يوم للأنصار : «انكم لتكثرون عند الفزع وتقلّون عند الطمع»

وما أجدر الشعوب الاسلامية اليوم ان تعي هذه الحكمة النبوية السامية فتتحصّن بالتكاتف في الملمات وتتهافت على النجدة والحمية وتنفر من بؤر الأطماع والاغترار ببريق الأعراض الزائلة.

فإن شر داء نخر الشرق وقعد به عن العلياء هو هذا الجبن ساعة الجد وسيل اللعاب على المناصب والمال وبيع الذمم في سبيلها وقد لاحظه الأجانب فكان من أسلحتهم الفعالة التي يحاربوننا بها ويحطمون مقاومتنا.

جريدة الصريح عدد 71 لـ1 نوفمبر 1950.

الحيـاة تطـوّر مستمـرّ

كانت جدتي وما تزال، وجدتي يعرفها جل أصدقائي ـــ تنظر إلى الدنيا بعقليتها البائدة وتفسّر الظواهر الكونية حسب معتقداتها البالية،، وتريدني أنا الذي يمثل الجيل الثالث ـــ أن أحيا وأتعامل مع النّاس طبقا لمفاهيمها وإدراكها هي للحياة والمعاملة وهي ما تزال حتى يومي هذا تنظر إليّ نظرة الطفل الغبي رغم ثقافتي واتصالي بالمجتمع والآفاق العالمية في العصر الذي أصبحت فيه العدوى سواء أكانت مضرّة أو نافعة تسري بسرعة وتصيب الكائنات والنظم مهما تباعدت المسافات الجغرافية.

وأضيق أنا بمحاولة إفهام جدتي أن الحياة تطور مستمر، وإن تقاليدها قد أخنى عليها الدهر، وأخشى ان ظهرت بها بين النّاس أن تكون أهزوءة المتحضّرين، ولكنّ جدتيْ الحمقى تأبى أن تثق بملاحظاتي، وتعمل العصا في جنبي كلما أردت أن أخرج بها من عالمها المظلم إلى عالم النابهين ذوي العقول الراجحة المميّزة.

إنهم يضربون المثل بإيمان العجائز في متانته وصموده، ولكنني أعتبر إيمان العجائز تحجرا وبلادة لا تشرف المصرين عليه.

ومثلما أتصارع أنا مع جدتي السخيفة هكذا تتصارع المبادي المنبثقة من صميم الحياة مع رواسب الماضي السحيق، وهكذا يتصارع النور مع الظلام.

يقظـان

الباب الثاني

في تحرير المرأة

يضم هذا الباب الثاني جل ما كتبه الأستاذ الهادي العبيدي في خصوص قضية طالما شغلت ولا تزال، علماء الدين والاجتماع والمثقفين عموما في مجتمعاتنا العربية والمسلمة، وأعني بذلك قضية تحرير المرأة.

فتعليمها مثلا لم يكن من البديهيات المسلّم بها في أوائل هذا القرن، وهو إذا أصبح في أيامنا هذه حق لا ينازعها فيه أحد، فهذا يرجع بقسط كبير إلى الهادي العبيدي. إذ كان يعتبر المرأة، المدرسة الأولى للطفل، فكيف لها أن تقوم بواجبها التربوي نحو ناشئتها إذا كانت هي نفسها غير متعلمة.

ثم طالب بتمكينها من الشغل وفنّد الادعاءات القائلة بأنها أقل نضجا فكري من الرجل، وطالب بتحريرها بوصفها نصف المجتمع.

سيجد القارىء في هذه الفصول ردّ الكاتب على الحملات الصحفية والتهجّمات التي استهدف لها هو وثلّة من رفاقه المثقفين وخصوصا الطاهر الحداد وذكرياته معه، ثمّ القصيدة التي أبّن بها العبيدي الحداد يوم دفن في سنة 1935 وكان من الناس القلائل الذين شيعوه إلى مثواه الأخير، في هذه القصيدة البليغة يحي العبيدي روح الحدّاد :

قفوا حيّوا المجاهد والعميدا   وصلّوا فالنبوغ قضى شهيدا

ويتألّم للجحود الذي لقيه من بني وطنه وسوء فهمهم له :

ويأسف من بني وطني رآهم   لفرط جمودهم عاشوا عبيدا
فصاح الصيحة الكبرى ينادي   ألا يا أمتي فكّي القيودا

وأخيرا يتنبأ لصديقه بأن التاريخ والزمن سينصفانه :

أخي إن ساءك السفهاء سوءا   وكان زمانكم نذلا كنودا
فلا تحزن فذا التاريخ عدل   سيمنح إسمكم منه الخلودا

وفعلا تدور عجلة الزمن وتصدر مجلّة الأحوال الشخصيّة تقرّ جلّ ما نادى به العبيدي والحدّاد ثلاثون سنة خلت والأهم كان إسهامه في زوال تلكم الأفكار المسبقة التي كانت عالقة بالمرأة كإنسان مفكر وعضو عامل في المجتمع وتطوّر طرق التعامل الميداني معها.

تعليم المرأة والحجاب

سطرنا في العدد الماضي كلمات وجيزة ومجملة بشأن التعليم النسائي ولم يكن الداعي لذلك سوى ضيق النطاق واليوم نشرح في هذا المقال بعض النقط على نية العودة للموضوع :

قد أصبحنا اليوم ولامفرّ لنا من تطور وانقلاب في حياتنا الحاضرة يأتي على التقاليد الرثة البائدة والعوائد الفسيحة التي وقفت دوننا والتقدّم ويقيم على أنقاضه حياة جديدة مناسبة لروح العصر ومطابقة لناموس التطور وسنّة النشوء والارتقاء أجل لا مفرّ.

بعد أن أسبغت علينا المدنية الحقة برودا قشيبة وأضاء القرن العشرون بعجائبه ومخترعاته زوايا الفكر الانساني القائمة فتملص العقل من قيود التقليد وانبعث نشاطا من عقال الجمود والركود وأضحى الرجل مضطرا إلى تشريك المرأة معه في جهاده الحيوي وصراعه الاجتماعي.

ولقد صار فرضا على الرجل العادل أن لا يغمط للمرأة حقوقا وهبتها إيّاها الطبيعة وأن يعترف بها في تسيير الحياة الاجتماعية. فمن الظّلم حينئذ بل من الوحشية أن نحتقرها ونمتهنها قائلين انها خليقة طفيلية وجدت لتكون ملهاة وألعوبة يتسلى بها الرجل أو أمة سخرت بخدمته وإخماد نار شهوته الحيوانية.

إنه لعار والله ووصمة سوداء تلطخ تاريخنا هذا فتقرأها الأجيال الآتية هازئة باحتقار تقول : لا رحم الله آباءنا الأولين، فقد كانوا وحوشا وكانوا للأوهام عبيدا يعذبون المرأة دعامة الوجود الكبرى، ويحتقرونها فعاشوا من أجل ذلك في آخريات الأمم.

على أن النهضة الحديثة التي طفقت تتوخاها أمتنا تؤكد علينا وتضطرنا لأن نقتبس من محاسن المدنية الشيء الكثير وأن نجاري الأمم في آراءهم العصرية وبالآخر نتخذهم أساتذة وقدوة في جهادنا الاجتماعي بعد أن نشبع نفوسنا بمبادىء ديننا الغير مكدرة بوخز الأوهام والدجل.

لماذا نستعبد المرأة ونودعها قعر البيت الضيّق؟ لماذا نعتقل المرأة ضمن المخادع ووراء الأستار ثم نسدل على وجهها خرقة تحرمها استنشاق الهواء النقي؟ أليست هذه وحشية القرون الوسطى وهمجية يستفظعها العقل وتأباها الشرائع والأديان؟

قرأنا العدد الممتاز من «الوزير» الأغر فوقع نظرنا على مقال بعنوان «بين الجمود والالحاد» للكاتب السيد مصطفى بن شعبان فقرأناه فرأينا صاحبه في أول المقال يندد بالجامدين وينتقدهم انتقادا مرا فراقنا ذلك وشكرنا لصاحبه الذي علمنا من نقده أنه لا يريد أن يكون جامدا بل ذا فكر حر مستنير ولكنه لم يستطع أن يثبت على رأيه فلم يلبث أن انضم إلى الجامدين بدون أن يشعر فما أشبهه بالطفل الصغير وقد حاول أن يقف تخونه قواه فيفقد توازنه ثم يسقط...!

قال متحدّثا عمن سمّاهم بالملحدين «بكل حرية يشرحون أفكارهم الاباحية ومباديهم الزخارف والطلاء الظاهري كالفائدة العظمى... المنجرة من السّفور وما في الحجاب من دلائل التمسّك بالقديم ... الذي لا بدّ من إزالته ليقام على أنقاضه شيء جديد لا يرتبط بدين ولا يتقيّد بشريعة ولا ينتمي لمعقول».

يا للعجب ! هل من يقول برفع الحجاب ملحد ؟ وهل الدفاع عن مخلوق صيّره الرجل ضعيفا واغتصبت حقوقه يسمّى إلحادا ؟ وما علاقة الحجاب بالايمان والالحاد ؟ لقد عهدنا الزميل ابن شعبان كاتبا عاقلا ينتقد الأضاليل والمضللين

والبدع التي ألصقها هؤلاء بالدين فما باله يكذّب رأينا فيه ويلصق هو بدوره للدين بدعة ليست منه ويرمي من يقول بحقيقة ناصعة بالكفر والمروق من الدين ؟ إننا لم نصدق ذلك لو لم نر امضاءه الصريح بذيل المقال المذكور.

على رسلك أيها الزميل أن لتحرير المرأة من قيود الاعتقال والحجاب فائدة عظمى إن كنت تجهلها فبالتحرير تتمكن المرأة من تنوير ذهنها بالعلوم والمعارف والنضال في ميدان الحياة إلى جنب الرجل.

في السفور فائدة صحية وعقلية لو كنت تدري، انظر إلى المرأة المتحجّبة كيف أن صحتها سقيمة وسيّئة، في الحجاب مضار كبيرة تهدد هذا المجتمع بالدمار والتقهقر. ومن لا يعلم أن خمار المرأة أخطر على عفّتها من السفور. كما قال الأديب (الناقد) بعدد «النديم» السابق.

على أن الحجاب وضع منذ الدولة العباسية لما كثر الفساد بين الذكران فأحدثوا الحجاب صونا للنساء من مشاهدة تلك الشنائع ومن اطلع على كتاب «تاريخ التمدن الاسلامي» للعلامة جرجي زيدان يدري صحة ما نقول وإن القرآن والأحاديث لم تتعرض لمسألة الحجاب إلا في خصوص أمهات المؤمنين لغرض سام.

يمقت بعض الناس تعليم الفتاة واعطاء المرأة حريتها الطبيعية ومنحها حقوقا وهبها إياها الاسلام وإذا ما حاولت إقناع هؤلاء بفساد ما يعتقدون، استشهدوا لك ببعض من المتعلمات ــ وهن أندر من النادر ــ اللّائي خلعن العذار وسرن مع تيار التهتك واعتمدوا على ذلك في شدة وحنق بقولهم : «هذه نتيجة التعليم وحسنائه الذي تحاولون ــ معشر الشبان ــ بثه في عقولنا».

غلط ما يقولون وهوس يمازجه جهل بالأسباب والمسببات. ليس التعليم والسفور هو الذي أيضا دفع بأولائك الفتيات في ذلك الطريق المعوج ــ طريق التهتّك ــ إنما فقدان التربية وفساد الوسط العائلي هما وحدهما اللّذان جنيا عليهن وفتكا بعفتهن فتكا ذريعا. فلنعلم البنت كيف تكون. أما طاهرة تربي أبناءها تربية صحيحة حتى لا يكون ما نراه من تهتّك وبعد ان تتعلّم المرأة واجباتها وتتسع دائرة

تفكيرها تتبرم ــ طبعا ــ من حياتها الحاضرة وترى أنها مفيدة لكن دائرة ضيّقة فتقوم مطالبة بحقوقها ومناظرة الرجل وعندئذ يدرك محبو استعباد المرأة وراموا انصارها بالالحاد انهم ما كانوا إلا في ضلال مهين...!

جريــــدة «الصـــواب» فيفـــري سنـــة 1928

الحجـاب والسـفـور

قرأنا بجريدة الوزير مقالا موجزا للسيد جلال الدين النقاش أراد فيه كاتبه أن يوفق بين مقالنا بالعدد الفائت ومقال السيد مصطفى بن شعبان الذي نشر بعدد الوزير الممتاز. غير أن السيد جلال الدين النقاش قد سلك في مقاله طريقة لم يعرف لها مثيل بين الكتاب وهي تبرير ساحة كل من كاتب هذه الأسطر والسيد مصطفى المذكور مع انه يوجد بيننا فرق كبير في الفكرة ابتداء وانتهاء.

ونحن نعتب على حضرة الصديق الكاتب لاقتياته علينا وادعائه اننا نقول بالسفور بدون قيد ولا شرط ولو تمعن في مقالنا السابق مليّا لما لامنا أو عاتبنا عن غير جريمة ! وتمحيطا للحقائق ورفعا للاشتباه نعيد الكرة ثالثا في موضوع المرأة لما له من الأهمية في الوقت الحاضر وقد برهنت أمتنا باجلى بيان على نزوعها للحياة السامية.

لقد أصبح فرضا لزاما علينا أن نعلم البنت ونصقل مرآة ذهنها من صدإ الأوهام والخرافات تعليما سداه الاحتفاظ بمباديها الاسلامية ولغتها وان نربيها تربية قومية محمتها الاحتشام والتعفف ثم لا نحرمها من حقوق شرعية عادلة واهمها التحرير ونبذ الحجاب تلك الخرقة الضارة بصحتها وعقلها.

وبما أننا اليوم لا يوجد لدينا مدارس قومية حتى نبث في روع بناتنا التعليم الملي الذي نصبو إليه ونتغنى به فهل يقف ذلك حجر عثرة في سبيلنا ويكون حائلا دون امانينا ؟ قد يكون هذا رأي بعضهم ممن ينظرون للحقائق نظرة سطحية ولا يتعمقون. أما نحن فلا نرى من السداد ولا من الحكمة أن يقف فقدان التعليم القومي عائقا لنا عن رفع كابوس الجهل عن بناتنا ـــ أمهات المستقبل ـــ ورأينا أن لا نهمل الانتفاع بالموجود في المدارس الحالية ـــ وإن كان ليس ضالتنا مع انتقاد أساليبه والسعي في الزام حكومة الاستعمار بتغيير البرنامج أو جعله على الأقل مماثلا للبرامج التقدمية ومتى تعودت الأمة تعليم أبنائها وبناتها وأدركت فائدة التعليم وأحست بها، نتج عن ذلك انشاء مدارس نسائية قومية بالضرورة ولتقدم أولئك الفتيات كضحايا على مذبح العرفان وما من شيء رديء إلا والجهل أردأ منه.

يستشهد السيد جلال الدين بالفتيات المتفرنجات على فساد رفع الحجاب وقد أجبنا في مقالنا السالف عن هذا الاستشهاد بما معناه أن التهتّك ليس إلا نتيجة طبيعية لفساد البيئة والوسط العائلي ولا دخل للسفور في ذلك ولو نشأ أولئك الفتيات في وسط عائلي تكتنفه الحشمة والتحفّظ لما رأينا واحدة منهنّ بين المتهتكات أو المتبذلات. وقد حثّ الاسلام على تعليم المرأة ولم يمنعه بحديث «علميها رقبة النملة كما علمتها الكتابة» وهو حديث صحيح كما أثبته الأستاذ المحقق الشيخ رشيد ضافي، أما حديث (لا تعلموهنّ الكتابة ولا تسكنوهنّ الغرف). فهو مخدوش فيه متنا ومعنى بدليل أن الاسلام قد أباح سكنى الغرف للنساء.

ولنرجع لمقال السيد جلال الدين النقاش فقد قال فيه : «أما ما وقع بين الكاتبين فما هو إلا محض سوء تفاهم فيما أظنّ إذ السيد مصطفى بن شعبان كتب باعتبار الحالة الراهنة في تونس وصاحب الرد كتب بدون ملاحظة لهذه فكلاهما له الحق من جهة».

لا يا صديقي. ليس الخلاف بيننا جزئيا كما أردت أن تجعله. فإن السيد بن شعبان لا يقول برفع الحجاب في اليوم ولا غدا بل هو يرى ذلك مروقا عن الدين ويصف من يقول به بالالحاد وكم أفهمنا في فصلنا أن الدين بريء مما يلصقه به وإن

ما يستشهدون به من قوله تعالى ﴿يا أيها النبيّ قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهنّ من جلابيبهنّ﴾ وجهل باللغة إذ أن أصغر تلميذ شم رائحة العربية يعلم أن الجلباب غير الحجاب..!

يقولون أن المرأة ناقصة عقل ودين ولذا فالسفور خطير على عقلها. ومتى سلمنا لكم أن المرأة ناقصة عقل ودين ؟ كلا. بل المرأة والرجل سيان في خلقهما الطبيعي، وان ما نشاهده من جمال المرأة اليوم إنما هو نتيجة ضغط الرجل وتعطيل أعضائها من تأدية وظائفها إذ كل عضو لا يؤدّي وظائفه التي وجد لها يضمحل بتطاول الأحقاب كما هو مقرّر بعلم وظائف الأعضاء.

وعلى كل حال فلا يمكن لنا أن نتكهّن بما عسى أن يريده السيد مصطفى بن شعبان في مقاله بالوزير غير ما فهمه كل من قرأه من رمي اخصام الحجاب بالالحاد وإذا كان الأمر غير ذلك فما عليه إلّا أن يبيّن رأيه في الصحف حتى نجيزه إذا كان حقاً وحتى لا يحمل الناس سكوته على قاعدة السكوت علامة الرضى.

جريدة «الصواب» لسنة 1928

العزوبة والطلاق
أسباب انتشارهما وكيف تقاوم ؟

أثارت مسألة تحرير المرأة ومنحها حقوقها الشرعية وتعرضنا لمسألة السفور والحجاب سخط كثير من أعضاء «مؤتمر الجامدين»... أولئك اللذين ما زالوا عثرة في سبيل تقدّم الشرق وسير الاسلام. فنعتونا بالالحاد والتجرّأ على الدين وإن كنا نلاقي سخافاتهم تلك هازئين ولا تزيدنا بلاهتهم إلا إقداما على توضيح خلطهم للأمة التي نراها تهزأ هي الأخرى بهذه الطائفة من البسطاء وخفاف الأحكام.

ونحن يلوح لنا أن السبب في كل هذه الضجّة القائمة في طول البلاد وعرضها إثر طرق موضوع المرأة يرجع لتغافل كتّابنا أو قصورهم واعتناؤهم إن كتبوا بترصيف الكلام في المواضيع الجافة البعيدة عن حاجياتنا في هذا القرن العشرين. لذا لما تناولنا هذا الموضوع وأبدينا رأينا الذي أملاه الضمير الحر والنظر لضروريات الحياة الجديدة لا للتقاليد والعادات والعواطف قالوا انكم ملحدون وإذ خطأناهم جنحوا إلى السباب والثلب وهو سلاح العجز وحجّة يلجأ إليها المبطلون.

هذا ولا شك أن هذه الطائفة قد قرأت رد أديبنا الكبير (الناقد) على جريدة (وادي ميزاب) ورأوا ما أدلى به من الحجج الدامغة على بطلان ما يقولون

من كون الحجاب من الدين وإذا فلنبحث عنه من الوجهة الاجتماعية : نرى كل يوم ونحسّ بتفاقم خطر الطلاق وتفشي داء العزوبة الفتّاك بين شبابنا فما هو سرّ ذلك يا ترى ؟

ربّما يقولون أن السبب الوحيد في ذلك هو الاملاق العام وعوائد التبذير والاسراف في المهور والولائم تلك العوائد الخطرة التي قضت على كثير من الثروات الطائلة بالاضمحلال والفناء وستكون مجلبة لفاقة البلاد ومهددة لهيكل الحياة الاقتصادية إن لم نسرع فنتلافاها بالمراهم الشافية والبلاسم الناجحة.

نعم هو ما يقولون ولكن ليس هو فقط الذي عطل أكبر سنن الاسلام (الزواج) عن الانتشار وحرم الناس من أن يملكوا نصف دينهم بل أن معه أمر آخر له من التأثير ما لا يخفى عن الأبله فضلا عن البصير وأعني به عدم اختبار الزوج لمن ستكون شريكة حياته قبل الزواج فلا يعجم عود أختلاقها وميولها وهل تتحد مع أخلاقه وميوله بل هو لا ينظر حتى إلى وجهها !

فتذهب الخاطبة أو أم الزوج وتنتخب الزوجة طبق أهوائها ومناسبة لذوقها الخاص والتي تشاطر منهن ابنها الاختيار لا تزيد عن ان تصفها له ساعة زيارتها لها وغير خفي ما تبديه الخطيبات من التظاهر بالكمال والاحتشام...

ويأتي يوم الزفاف وتنقضي أيام العسل وتأخذ الزوجة في الظهور بمظهرها الحقيقي ويزول طلاء الكمالات المزيّفة شيئا فشيئا فلا تلبث طويلا حتى يحدث بينهم الشجار ويتعكّر صفاء الجوّ العائلي فيحل الشقاق محل الارتياح والسكون المقصود من الزواج حيث قال تعالى : ﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودّة ورحمة﴾. وأخيرا تنتهي هذ المأساة بالطلاق أو الحياة على تلك الصورة حياة مشوبة بالأكدار والمنغصات وهذا ينافي حكمة الشارع من سن الزواج.

وما الداعي لكل هذا الشقاق العائلي والتنازع السائدان اليوم في الأوساط التونسية سوى تلك الخرقة البالية (الحجاب) فهي وحدها المنتجة لك هذه الأضرار وأضرار أخرى فيها انهدام المجتمع وتلاشيه ولو كان النسوة سافرات غير مبرقعات

ومختزنات بالدور كالمتاع، لأمكن لشبابنا أن ينتخبوا وينتقوا شريكة حياتهم بدون أدنى صعوبة، ولما رأينا خطر الطلاق يتسرّب للعائلات بأسرع من سريان السائل الكهربائي ولكانت حياتهم هادئة مطمئنة ترفرف فوقها أجنحة السعادة والسلام.

لا يظنّ خصومنا وبالتالي خصوم النهضة الفكرية وكل جديد ان نقول هذا جزافا ومن آرائنا الخاصة. بل ان الاسلام أمر برؤية الزوج بخطيبته قبل الزواج : روى المغيرة بن الشعبة أنه أراد أن يتزوّج امرأة وحدّث النبي عنها فقال عليه الصلاة والسلام : «اذهب وانظر إليها فإنه أجدر أن يؤدم الله بينكما». وقد قال بهذا الحديث الامام أبو حنيفة وأصحابه وليعلم هؤلاء أن عادة توكيل الخاطبة أو واحد من الأهل في اختيار الزوجة إنما حدث بعد عصر الاسلام الأول وقد انتقده بعض العلماء وقتئذ ونقل المرحوم قاسم أمين في كتابه «تحرير المرأة» قول الأعمش «كل تزويج يقع على غير نظر فأمره همّ وغمّ».

ولذا فقبيح بنا أن نرى داء العزوبة والطلاق يهددان هيئتنا الاجتماعية بالقضاء عليها ونبقى مكتوفي الأيدي صامتين إذ لا يخفى ما ينتج عن انتشار العزوبة ومصير الأمة الى الزوال وقد قال عليه السلام (تناكحوا تناسلوا.. الخ) ومن الجنوح إلى الزواج بالأجنبيات اللاّتي يجد أبناؤنا فيهنّ ما يتطلّبون من تربية وتعليم وتهذيب وفهم للواجب وفي هذا بلاء عظيم تنسحق تحت أقدامه قوميتنا وعنصرنا العربي الماجد فلنمزّق سحابات التقاليد البائدة التي حاكتها الأوهام والهوس ونأخذ العدة لمسايرة هاته المدنية التي تجرف كل ما هو لا يتحرّك، في نطاق ديننا الحنيف وشريعتنا السمحاء الصالحة لكل زمان ومكان.

هذه كلمة أوحاها الضمير نضعها أمام أعين اللذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه وعلى الجامدين العفاء.

جريدة «الصواب» سنة 1928.

التعليـم النسائـي والمدارس الأجنبيـة

سبق لنا أن كتبنا فصلا بالعنوان أعلاه أوضحنا فيه خطأ الشعب التونسي في غض النظر عن تعليم المرأة وجهله بحالها من التأثير في هذا المجتمع الانساني. وقلنا أنه من الواجب أن نعلّمها حتى لا يبقى عضو من أعضاء المجتمع عاطلا أشلا وقد خلق لأداء وظيفة. ثم قلنا في ختام الفصل إن التعليم الذي يفيد فتاتنا فائدة تامة هو التعليم القومي الوطني حيث تدرس الفتاة لغتها وادابها وتقتبس أخلاقها العربية الطاهرة وهذا يلزمه تأسيس مدارس نسائية قومية ورجونا من اغنيائنا ان يقوموا بهذا الواجب.

ثم كتبنا بعد مدة فصلا آخر تعرضنا في أثنائه لهذه المسألة وقلنا ان فقدان التعليم القومي اليوم لا يقف حائلا دون تعليم بناتنا وتطوير أذهانهن وليس قولنا هذا عدول عن فكرتنا الأولى كلا. وإنما الذي قلناه يعد بناء على فقدان ذلك التعليم المرغوب وعدم وجود المدارس القومية ببلادنا أن نبتدي بالحاضر في المدارس الأجنبية وان كانت فائدته ليست عظيمة ريثما تتعوّد الأمة التضحية والاقدام ونحس بفائدة تعليم المرأة فتدفعها رغبتها في النهوض التي تكون قد خلقت فيها أثناء تلك المدة وعندها تتطاول أعناقها إلى أسمى منه فتبذل المال في سبيل التعليم القومي والمدارس القومية المرغوبة.

هذه كانت فكرتنا ونظريتنا في كل ما كتبناه وهي كما يراها القارىء مناسبة لحالة الأمة اليوم وقد أعدناها هنا بمناسبة قيام بعض الأفراد ينكرونها علينا ويخطئوننا فيها.

فقد كتب الصديق محمد المرساوي بعدد 1527 بجريدة النهضة مقالا يعتب فيه علينا ويقول ان تعليم البنت في المدارس وبالأساليب الحالية مضر بالأمة ولا فائدة فيه بل الجهل أحسن منه !

رويدك يا صاح، فما أنت في ذلك بمصيب. قلت في مقالك أنا أتينا فيما كتبناه ثانيا بفكرة غير الأولى وهذا غلط يخالفه الواقع وذلك أننا لم نقل أن التعليم القومي غير ضالتنا المنشوطة حتى يصح ما قلت، بل إن بقاء بناتنا جاهلات أمر لا نُوافق عليه شخصيا كما لا نظنّ أن أحدا من العقلاء يوافق عليه أيضا ونرى أن في التعليم بالمدارس الموجودة الآن فائدة أنه يحارب الأمية ويمزّق سحب الخرافات التي يسميها الجهلاء عوائد شرقية...

يقول الصديق أنه لايتيسر لنا تعليم بناتنا ونحن نرى أغلبية أبنائنا هملا في الطرقات. وهي هفوة طالما اعتبر بها من لا يسيرون الأشياء بمسار العقل الصحيح ما دام لا يصدنا الاشتغال بتثقيف البنت عن تثقيف الطفل أيضا.

ويقول أيضا أن كل الأمم المتمدنة نراها قد بدأت بتعليم الذكور ويستشهد على ذلك بأن فرنسا مبتكرة التعليم الاجباري، تجد النبغاء والمخترعين فيها من الرجال فقط. وهذا لا يقوم له حجة ولا معنى للاستشهاد به إذ ليس الواجب على المرأة المتعلّمة أن تكون مخترعة ونابغة في فن من الفنون بل ان وظيفها الطبيعي الأمومة وتهذيب الطفل ومن نبغ من النساء فهو على خلاف الأصل.

على أن بلادنا لم تكن اليوم فقط قد شرعت في تعليم الذكور من شبيبتها حتى يصح هذا القول بل منذ مدة وقد ظهرت نتائج تلهفها إلى التعليم أن ضاقت المدارس في هذه السنة عن إيواء الكثير من الأطفال ولا يمكن للصديق أن ينكر ذلك، والذي تعنيه من التعليم وتطلبه الأمم في بدء تحفزها للنهضة ليس غير التعليم الابتدائي لرفع الجهل وتكوين الفكر العام واما التعليم العالي فإنما نبحث عنه متى

أوغلنا في التعليم الابتدائي اما ونحن لم نزل في الأثناء ولا زال الجهل مخيما على الأدمغة فلنوجه كليتنا إلى تعميم هذا النوع.

ثم ختم مقاله بما ملخّصه أنه يجب علينا معشر التونسيين ان نعلّم أبناءنا لأنهم محتاجون في الوقت الحاضر أكثر من البنات. ونحن لا نقول بهذا الرأي ولا نرى من موجب لهذا التبجيل والمفاضلة سوى سوء فهم وظيفة المرأة في الهيئة الاجتماعية. هذه كلمتنا في الموضوع وأولوا الألباب من جعلوا همهم في البحث للوصول إلى الحقيقة. ضالة الجميع، لا الغرض والشهوة الذاتية.

هذا وقد قرأنا أيضا بعدد 1528 من الجريدة المذكورة كلاما ينتقد فيه قائله وقد جاء متأخرا على فصلنا المنشور في عدد ماضي من هذه الجريدة بعنوان «تعليم المرأة والحجاب».

ولو كان يصح أن يسمى انتقادا لقبلناه ورددنا على صاحبه ولكنه هذر ممزوج بتهور يدل على طيش وخفة عقل ولا يظن قارئنا العزيز أن نلقى الكلام على عواهنه أو بدافع الغرض بل كل أقوالنا مدعمة بالحجّة والبرهان وهاك دليلا على طيش كاتبه؛ فقد زعم أن فصلنا المذكور نشر أفتاحيا وهل أكثر من هذا دليل على طيشه ورعونته وكيف يقدم نفسه للإنتقاد الذي يتحتم على متعاطيه أن يكون حصينا ورصينا وهو لم يفرق بين المقال الافتتاحي وما ينشر في داخل الجريدة وإليك مثالا آخر على أنه لا زال في المهد صبيا لا يفهم ما يقرأة ثم مع ذلك يكلف نفسه مشقة الانتقاد.

فقد جاء في فصلنا المذكور ما يلي بالحرف الواحد أثناء الكلام وعن احتقارنا للمرأة وامتهانها «إنه لعار والله ووصمة سوداء تلطّخ تاريخنا. هذا، فتقرأها الأجيال الآتية هازئة باحتقار تقول : لا رحم الله آباءنا فقد كانوا وحوشا وكانوا للأوهام عبيدا يعذبون المرأة دعامة الوجود الكبرى ويحتقرونها فعاشوا من أجل ذلك في آخريات الأمم». هذا ما قلناه واطلع عليه القراء في إبانه.

فماذا تظنّ أنه فهم من هذا ؟ لقد فهم أنّا نشتم أجدادنا العرب وعدّ ذلك منا عقوقا وتجرف منكرا ثم أخذ يهرق بما لا يعرف ويشنقنا بفلسفته البديعة... مما

يدل على أنه أجهد نفسه في تنميق مقاله وملئه بكل ما حوته حافظته من الأمثال البذيئة ولكن نحن، غيرة على وقت القارىء نتغاضى على تلك السخافات والسفسطة التي حاك من مجموعها مقالا والأمر الذي جعلنا نعجب كثيرا هو نشر «النهضة» لكل ما يرد عليها بدون تأمل أو اعمال فكر وهذه صفة قبيحة ننتقدها على بعض صحفنا التونسية حتى لا تكون موسخا للمهازل والدعايات...

ومما يزيدك علما بنصيب هذا الكاتب من السخافة أنه بعد أن اتفق الخاص والعام وبالأدلة الناصعة ان لا علاقة للدين بالحجاب جاء في آخر الحلبة يقول أنه من الدين وينكر علينا الاستشهاد بقول جرجي زيدان الذي نقلناه في الفصل المذكور في مسألة دينية كمسألة الحجاب ! وهذا تعصّب ممقوت مع أنّا عندما نقلنا قول جرجي زيدان لم ننقله في مسألة دينية كما يزعم بل تاريخية والمؤرّخ يكون فوق الأديان والشرائع ثم هو يطلب منا أن ننقل إليه كلام خبر من أخبار المسلمين ولكنا نحيل عليه الطلب فنرجوه أن يفيدنا هو بكلام عن ذكر يثبت أن الحجاب من الاسلام.

والخلاصة، أنه يجب على كل أمة تطمح للنهوض والحياة الحقّة أن تتنازل عن نصيب من عاداتها القديمة وتهزأ بما يعترضها من عراقيل الجامدين من أفرادها وأن تجازف وتضحي بالنفس والنفيس إذ لا بدّ من التضحية للوصول للغاية السامية وان تراعي إحساس وعواطف بعض الأفراد ولا تسير مع الأهواء والمشتهيات الخاصة فمصلحة الجماعة مقدمة على مصلحة الفرد ومن يخطب الحسناء لا يغله المهر. والله يعلم المفسد من المصلح وفي جهاد الأمم الأخرى عظة لنا وذكرى.

جريدة «الصواب» سنة 1928.

الجمعيات النسائيّة وحاجتنا إليها

لم أر موضوعا في حياتي أثار الأفكار التونسية واهتزّت له حتى الأوساط العائليّة كموضوع المرأة وتحريرها وإعطائها ما لها من حقوق ومن بينها السفور والغاء القصر والحجاب. فلقد كان الكاتب التونسي قبل هذه الأيّام يخترق المواضيع العديدة ويخوض كثيرا من المسائل فيقرأها الشعب دون معارضة أو تحبيذ الأمر الذي قضى على الأدمغة هنا بالجمود وجعلها ترى اللذين يبدون فكرة لم تعهدها من قبل، كمعاول يريد أن يهدم ما ضرب عليها من سرادق الأوهام التي تقدسها، فجدير بنا أن نسرَّ اليوم لهذا التطوّر الفكري الصحيح وانقضاء تلك الأيّام المظلمة لا أعادها الله.

عزمنا على اختراق هذا الموضوع وكتابة سلسلة من المقالات نتناول فيها كل ما يتعلّق بالمرأة حتى نرفع شأنها ونكشف الغطاء عمّا لها من تأثير في الحياة فكتبنا في وجوب تعليمها وضرورة إيجاد مدارس لهذا الغرض. وكتب احدهم يقول أن السفور حرام ويلحق الذين يقولون به بالملحدين فتناولنا موضوع السفور والحجاب وكتبنا فيه معلنين للناس ان ما قاله هذا الكاتب كلام فارغ وهراء لا صحّة له إذ الدين الاسلامي لم يأت بالحجاب ومن المستحب شرعا أن يرى الرجل خطيبته قبل العقد حتى يحصل السكون والمودّة المقصودة من الزواج.

ولكن بعضهم أبى الا عنادا وامتنع من الاذعان للحقيقة التي هي ضالّة كل باحث فملأ الجو صياحا وعويلا وهو لا يعرف عن الموضوع فتيلا ولما بلغ به العجز أقصاه، جنح إلى تكوين دعاية ضد اشخاص المجددين وانصار المرأة ودعانا بالملحدين والاباحيّين!!!

يجب أن نعلم الكل أن المرأة لم يخلقها الله لتكون ألعوبة للرجل وأمة لتنفيذ مشتهياته فقط إذ هذا عبث وتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا بل المرأة عضو في المجتمع مثل الرجل خلقت لاداء وظيفتها فيه ووظيفتها تلك هي مساعدة الرجل على مغالبة الحياة وعمران هذا الكون الشاسع.

إذا أدركنا هذا يكون من البديهي لنا أن قصر هذا العضو وابقاءه عاطلا أشلا ينافي حكمة وجوده ثم هو خطر يهدد المجتمع طال الزمان أو قصر.

على أن مسألة العناية بالمرأة ليست وليدة اليوم بل كانت مما يشغل بال كثير من مفكرينا وفلاسفتنا القدماء وهذا ابن رشد قد تعرّض للمرأة في فلسفته التي جمعها الفيلسوف الفرنسي ارنست رينان وبعد أن أظهر التألم من بقاء ثلثي الهيئة الاجتماعية ــــ النساء ــــ عالة على الثلث تطرق في الحكم وقال باستعداد المرأة للقيام بكل الوظائف التي يؤديها الرجال، حتى التقدّم إلى ميادين الحرب والنزال.

وبمناسبة اهتمام الشعب التونسي بهذا الموضوع وسعي البعض من المتعلّمات في تأسيس جمعيّات ونوادي نسائيّة نكتب كلمة في المقام نشجّع بها القائمات لهذا السّعي المحمود ونوضح للشعب مزاياه.

مسألة تأسيس جمعيّات ونوادي نسائيّة مختلفة من أهم المسائل بل ضروريّة لنا إذا أردنا أن ننهض بالمرأة إلى مستوى يمكنها من المشاركة الفعليّة في هذا المعترك العظيم. فمن الواجب أن نعين النسوة على تكوينها فتكون سببا لتعارفهن وتقوية أواصر الولاء بينهن سيما ولدينا من المتعلّمات عدد من الجنون ان نبْقيهن متفرّقات ايدي سبا لا تضمهن إلّا المئاتم والحمامات فلا يفدن بما أوتينه من مواهب بنات جنسهن أو يجدن أين يصرفهن فراغ الوقت فيما هن في حاجة إليه من حرية

مغصوبة وحق مهضوم. وقد كتب الينا بعض من هؤلاء المتعلّمات معربات عما يجدنه في نفوسهن من أسف لهذه الحالة المحزنة مع ما يقرأنه عن جاراتهن من تمتّع بكامل الحقوق واحترام مفقود ببلادنا ووعدتنا احداهن بكتابة فصول في موضوع المرأة ربّما وافينا قرّاء «الصواب» بها في أعداد مقبلة وقد تعجبن لوجود أناس في تونس ينتصرون للمرأة ويضمرون لها عطفا!؟

إن صرف النظر وتوجيه الجهود نحو تعليم الفتاة فقط لا يأتي بالثمرة التي نرجوها من وراء ذلك إذا لم يكن هناك جمعيّات نسائيّة تؤمها الفتاة فتباحث صاحباتها في دروسها اليومية ويتبادلن الآراء في المواضيع الأدبيّة والاجتماعيّة التي تصقل الذهن وتربي الملكة في الرؤوس.

ان الامة التونسيّة اليوم على باب تطوّر جديد ونهضة تؤذن بمستقبل زاهر فواجب علينا أن تدخل البيوت من أبوابها ونأخذ بوسائل النهضة الحقيقية حتى نبلغ المراد من أقرب السبل فنقتصد الوقت ولا نتكلف من التضحيات والمشاق إلّا قليلا.

جريدة «الصواب» لسنة 1928.

شـــذرات : سكت ألفا ونطق خلفا

يذكر القراء أنّا كتبنا منذ مدة بعدد 531 من «الصواب» كلمات حول مقال نشرته «النهضة» لأحد المتهافتين على الكتابة أتى فيه لخلط سمّاه انتقادا لفصلنا المعنون «تعليم المرأة والحجاب». وقد أفهمناه في تلك الكلمات ما أشكل عليه فهمه من مقالنا المذكور ووضّحنا له خلطه وتخريفه ومضى زمن ينوف عن الشهر قلنا أنه رجع فيه لصوابه واعترف بخطئه.

ولكن لم نشعر بعد مضي كل تلك المدة إلا والنهضة تنشر ثانيا هذرا مذيّلا بإمضاء ذلك المتطفّل وقد تأمّلناه فوجدناه مملوء بالتقعر البارد والبذاءة المشينة رغما عن افهامنا إياه إلى الانتقاد ــ إن صحّ أن ذلك انتقادا ــ لا يكون بذلك الأسلوب الهمجي وان من يرغب الاحراز على لقب كاتب يجب أن تتوفّر فيه شروط إحداها النقد بالحجّة والبرهان المنطقي لا بالتقعر والخروج عن جادة الحقائق الناصعة.

لقد أنكر علينا في المرة الماضية نقلنا عن جرجي زيدان ما يدل على أن الحجاب بدعة مستحدثة وانه عادة لا دين وطلب إلينا أن ننقل له عن حبر من أحبار المسلمين ما يثبت ذلك وقد أحلنا عليه في ردنا منذ زمن ــ السؤال ــ فطلبنا منه أن يأتينا هو بقول حبر ممن ذكر يثبت بالتقصّي ما نقلناه. فماذا أتى ؟

لقد عمد إلى قوله تعالى : ﴿يا أيّها النبيء قل لأزواجك وبناتك﴾ الآية إلى قوله ﴿يدنين عليهن من جلابيبهنّ﴾. ثم نقل كلاما للبيضاوي وبعض المفسّرين في تفسير الآية وردنا على ما أتى به هنا هو أن نشير عليه بمراجعة أسباب نزول الآية أولا وثانيا نحيطه علما بأن الجلباب غير الحجاب وإذن فلا وجه للاستشهاد بهذه الآية.

وأتى أيضا بقوله تعالى : ﴿ولا تبرجين تبرج الجاهلية الأولى﴾ وهو خارج عن موضوعنا إذ متى حبّذنا التبرّج أو دعونا إليه ؟ وهذه آخر كلمة عن المرأة في العدد الماضي جاء فيها قولنا «... سفورنا مغاير للتبرّج الذي نهت عنه شريعة الاسلام».

أما قول المفسّرين بدون استناد على نص صريح أو أحاديث صحيحة فإنها لا تكون دليلا على إثبات أي شيء من الدين إذ هي نتيجة أفهام مخصوصة وإما بقوله تعالى : ﴿وللرجال عليهنّ درجة﴾ فنكتفي بأن نشير عليه بمراجعة ما قاله الشيخ محمد عبده بتفسيره من هذا الصدد.

ووقتنا ثمين لا يسعنا أن نصرفه في التخرصات والتشدّق. فليتعلّم هذا المتهافت الكتابة ويدرس النقد وقواعده وليعلم قبل كل شيء أن مسألة الحجاب قد خاض فيها فحول من العلماء وأثبتوا أنّها ليست من الدين في شيء ولذا فهو إن حاول ذلك فإنّما يحاول عبثا ولعلّه قد طالع محاضرة الأستاذ عبد القادر المغربي وقد نشرتها «النهضة» تباعا فرأى ما قال بها الشيخ من تقليد المسلمين نبيّهم في الحجاب ووصفه ما ينتج على ذلك وناهيك بالشيخ من باحث مطلع وعالم جليل، فليهون عن نفسه ويريحنا من هذر لا فائدة فيه وبذلك يكفينا مؤونة إضاعة وقتنا في الصبيانيات المخجلة.

جريدة «الصواب» في 27 أفريل 1928.

مسألة تعدد الزوجات بالنسبة للمتهمّجين

من المسائل التي كثيرا ما أفسحت مجال القول على الشريعة الاسلامية مسألة تعدد الزوجات التي يعدها الأجانب من أكبر النقائص في شريعة الاسلام التي جاءت عقب الشرائع الأخرى جامعة لما تفرّق فيها من محاسن مع زيادة تجعلها بحق خالدة مع الأيام. إذ نسمعهم يقولون ان هذا الاضطراب العائلي وهذه المآسي الدامية التي تنسب إلي هذه الاباحة المنافية لروح العدل والمنافية للسعادة الزوجية هي إحدى مآثر العقيدة الجديدة التي جاءت عقب الديانة المسيحية. ومعلوم ان مثل هذه المفتريات من شأنها أن تكون دعاية سيّئة ضد الاسلام تشوه وجه مباديه الناضر وترسل عليه أشعّة سوداء ؟

وقد يكون للناقد بعض الحق في انكاره ذلك عن الاسلام خصوصا وهو لا يجد من علماء الاسلام من يقرر منع هاته المسألة في هذا العصر بل توفر القيود التي أحاطها في غالب العصور ويتعمّق في فهم الداعي للاسلام على هذا التشريع من ظروف واعتبارات خاصة.

وأراني مضطرّا إزاء هذا الانتقاد المتكرّر الذي يحط بشرف الاسلام وبدت أضراره للعيان إلى رده بما يقنع مصوّبيه، ان الاسلام لا يخالف أفكارهم الاجتماعية الصالحة ان هو يقرها ويحث عليها لما ينتج عنها من الصالح العام المنشود.

على أني في هذا الرد لا يحاول الانسان بشيء جديد ولكني أسأل القراء كيف كانت الحياة الزوجية عند العرب قبل مجيء الاسلام ؟ والجواب يعلمه كل من له إلمام بتاريخ الجاهلية وهو أن الحالة الزوجية في تلك العصور كانت سيّئة للغاية فهم لا يعطون للمرأة حسابا أو يفهمون من الزواج المعني الذي نفهمه من التآلف القلبي والتعاون للتغلّب على آلام الحياة وكان الواحد منهم يضمّ في منزله من الزّوجات عشرات بل ان أحدهم كان له مائة زوجة ؟ فقوم تلك حالتهم قد درجوا عليها قرونا متطاولة وتطبّعوا بها من الصعب ان يعمد الاسلام إلى استئصالها لأول وهلة لا سيما وأن النبيء ﷺ لم يكن يملك في أول الأمر قوة مادية يجبرهم بواسطتها على الخنوع لأوامره بدافع الرهبة وحب البقاء. فاكتفى الاسلام بأن أباح لهم من النساء أربعة فقط وقيد هذه الاباحة بقيد ثقيل الأمر الذي يشعرنا بأنه لم يكن يرضي التعدد لعلمه بما فيه من الأخطار. وان اباحته لنكاح أربعة كان مراعي فيها مصلحة الأمة العربية في ذلك الحين حيث ان العرب أمة عربية معرض أفرادها للفناء. فيبقى النساء أرامل وعددهن أكثر من عدد الرجال في العالم فأبيح التزوّج بأربعة أولا لاكثار النسل الاسلامي وانمائه وثانيا لحفظ هاته النسوة بعد موت أزواجهنّ ولعدم امكان قطع عادة التعدد التي اعتادها العرب وأفرطوا فيها أسوة بمن نفسهم بين الأمم ولنضع بين يدي القراء صورة للوسط الذي تعددت فيه الزوجات والحياة التعيسة التي يحياها ذلك الزوج المسكين؛ فالنساء لا يمكن اتحادهنّ وان تميل الواحدة للأخرى، لذلك ترى الواحدة إن بدت لها فرصة للوشاية عند الزوج في شأن بقية الزوجات ولاتتأخر عن بذل مجهودها في تنميقها حتى تحمل الزوج الذي لا هداية لديه على ضربهنّ وطردهنّ فتضطرم نيران الغيظ في أفئدة هاتيك النسوة وتسعى كل واحدة منهن للانتقام من الزوج والمرأة الواشية فيكثر العراك والمشاجرة المتواصلة ويكثرن من خيانة الرجل في ماله لأنهنّ دائما يتوقّعن الطلاق ولا يكتفين بذلك بل تبث كل واحدة في روع ولدها ما يجعله من ألدّ الأعداء لاخوته من غير أمّه بأن تمقتهم دائما وتذكرهم بالسوء على مسمع منه موهمة أياه بأنهم ممتازون عليه عند والده وناهيك بمفعول تلك الأقاويل والتخيلات في نفس الطفل حيث تنشأ معه ولا تفارقه طول حياته وما عسى أن يكون موقف الزوج إزاء هذه المنغصات المبيدة فإنه يقف موقف الحائر المشدوه حتى إذا ضاق

درعا عمد إلى التخلّص من هذا الشقاء أما بطلاقهن جميعا أو واحدة منهن ولو كانت أم أكثر أولاده وتصوّرو ما تقاسيه هذه المرأة بعد طلاقها وأين تأوي بأولادها إذا لم يكن لها أهل فإنها لا تجد بدّا من رد الأولاد إلى أبيهم مع علمها أن زوجته تعاملهم أسوأ معاملة إلى غير ذلك مما يطول شرحه وهو لا يظهر بجلاء إلا في البادية حيث عادة التعدد متفشية بصورة عظيمة.

وبعد فهل لا زال يعد الجامدين القول بمنع تعدد الزوجات إلحادا ومروقا قد شاهدوا الأخطار المنجرّة من ورائه واضطراب الوسط العائلي الذي هو صورة مصغّرة للأمة والمجتمع.

إن الاسلام قيد الجمع بين الزوجات بقيد ثقيل هو تطبيق العدل بينهن ومن الصعب توفّر هذا الشرط ولا سيما في عصرنا هذا حيث أصبح التعدد وسيلة يتخّذها الزو ج لارهاق زوجة لم توافق ذوقه فهو لا يطلّقها فتأخذ حريتها بل يبقيها معلقة ويتخذ زوجة ثانية يشملها بعنايته إرضاء لشهواته وتنكيلا بالأخرى !

وبناء على ذلك يمكننا أن نضيف كلمة الالحاد والمروق بحق إلى الجامدين حيث أن تعدد الزوجات أصبح يستعمل مخالفا لما أتت به الشريعة وهم يحبّذون ذلك التعدد والمحبّذ لمخالف الشريعة مخالف لها ومارق عنها فماذا يقول الجامدون؟ إننا نهيب بعلماء الدين أن يمنعوا التعدد الفاحش إلا بإذن من القاضي عند الضرورة اللازمة. فقد تفاقم الشر وفقد الهناء العائلي مما عاد على المجتمع بوبيل النتائج وانا لمنتظرون لما سيبثون في هذه المسألة الهامة ذات الأثر الفعّال في الحياة.

جريدة «الصواب» لـ11 جانفي 1929.

والآن، هل تعترفون بوجوب تعليم المرأة ؟

عندما كتبنا عن تعليم المرأة ووجوب تأسيس مدارس للبنات تزرع فيهنّ ثقافة قومية إسلامية قامت حول كتاباتنا ضجّة من جماعة الجامدين أو المحافظين في عبارة أرشق واعتبروا ذلك دعوة إلى التهتّك والدعارة التي يكرهها العقل ويحرمها الشرع والقوانين المدنية.

ورغم إدلائنا بالحجج المنطقية والنصوص الدينية لإفهامهم أن المرأة ركن من أركان المجتمع لا يقوم راقيا نشيطا بدونه فقد أصر القوم وتعنتّوا في الرأي مما دعانا إلى السكوت عن التحدث في الموضوع إذ رأينا أن المناقشات البيزنطية لا تأتي بفائدة وانّ المثل العامي القائل «كلامك مع اللّي ما يفهمكش ينقّص من الأعمار» حكمة نتّعظ بها عن مجاراتهم في سبيلهم المعوج.

وقد دارت الأيام دورتها حتى انعقد المؤتمر الافخارستي ببلادنا فأبان لنا عن حقيقة كنا نشعر بتزايد خطورتها يوما فيوما وان خَفَتْ عن أعين هاته الطائفة فعددناها أجل فائدة جناها التونسيون منه وخير تعزية لهم عن المليونين اللذين انتقصا من ميزانية نظام الحماية للانفاق على المؤتمر ومدوعويه !

وهذه الحقيقة هي ما صرح به الخطباء في المؤتمر في معرض التنويه بخدمات رجال التبشير بهذه الديار والفخر بالانتصار الذي أحرزوا عليه في مشروعهم عن طريق مدارس البنات الكاتوليكية المؤسسة في العاصمة وأحوازها.

ولقد عظم خطر هذه المدارس المنتشرة ببلادنا بفضل تساهل التونسيين في إرسال بناتهم إليها وبما تقوم به الراهبات من مجهود نشيط في هذه السبيل وتظهرن فيه من التودد والرعاية للبنات الأمر الذي ينسيهن اباءهنّ وعائلاتهنّ ويجعلهنّ ءالة صماء في أيدي أولائك الراهبات يعبثن بهنّ كما يشئن ويلقين في روعهن حبّ الكاتوليك والمذهب الكاتوليكي حيا منقوشا في الفؤاد.

والحمد لله أن لا زالت الأحداث تؤيدنا المرّة تلو المرة كلما جاء زمن مناقشة الحساب مع اخواننا المذكورين الذي ما فتىء التظاهر وسوء الرأي يدفع بهم إلى معارضتنا كلما وجهنا دعوة لخير الأمّة والوطن، وتريهم الأيام بين حين وآخر عاقبة معارضتهم. ولو اتفقوا معنا وحرضوا أغنياء الأمة على تأسيس مدارس قومية نسائية تتلقى فيها البنت ثقافة اسلامية نقية لما حلت بنا هذه الأخطار ولما اضطرّ أفراد الشعب إلى الزجّ ببناتها في تلك الدور فتتزعزع عقيدتهنّ ويرجعن لعائلاتهنّ يحملن ظاهرا اسلاميا وقلبا مسيحيا! حتى اذا كبرن وصرن أمهات قمن بالدور الذي مهدت إليه الراهبات من تمسيح بناتهن ودخولهن في بوتقة الكنيسة لا قدّر الله ولنا عودة.

جريدة «الصواب» لـ23 ماي 1930.

ذكريات عن الحداد

للحقيقة... والتاريخ

للأستاذ الهادي العبيدي

في سنة 1928 قامت بيني وبين المرحوم مصطفى بن شعبان الذي كان يحرر افتتاحيات جريدة «الزهو» الشعبية في عهد مؤسسها الأديب الشعبي المنعم الحاج عثمان الغربي، قامت بيني وبينه مناقشات بسبب المقالات التي كنت أحررها في صحيفة «الصواب» لعميد الصحافة التونسية أستاذنا المنعم محمد الجعايبي، وكانت المقالات تتحدث وتدعو إلى التجديد في الأدب وإلى تعليم المرأة وتحريرها من عبودية قرون الانحطاط التي جعلت فروضها التحكيمية في تعاليم الدين الاسلامي الحنيف.

وقد اتسع نطاق المناقشات حول قضية المرأة بيني وبين المرحوم السيد مصطفى بن شعبان فتدخّل في الموضوع كثيرون من بينهم المرحوم الشيخ علي كاهية والسيد حسن الزمرلي الذين وقفوا يعارضونني ويحملون علي، ولكني كنت مندفعا في حماس الشباب أردّ عليهم في صحيفة «الصواب» بمنطق النهوض وبالأحاديث النبوية وبأحداث التاريخ في صدر الاسلام ولم تكن لي يومئذ علاقة سابقة بالمنعم الطاهر الحداد.

غير أن تلك المقالات والضجة التي قامت حولها في صحيفة «النهضة» و«الوزير» كانت سبب تعرّفي إلى الأستاذ الطاهر الحداد واجتماعي به في مقهى ساحة القصبة حيث كان يقضي العشايا والأمسيات صحبة أصدقائه السادة : أحمد الدرعي، محمد السعيدي، عبد الرحمان عطية، محمد السرايري وغيرهم، وتوطدت بيننا العلاقة فغدوت لا أبارح ذلك المجلس.

وقد حرر الأستاذ الطاحر الحداد بضع مقالات في الموضوع نشرت بصحيفة «الصواب» في تلك الفترة بحث فيها قضية المرأة التونسية وما تعيش فيه من إرهاق وما تعامل به من ازدراء ومهانة.

ومع الأيام رأى أن بضع مقالات تنشر في الصحف لا تلم بجوانب القضية الهامة بل لا بدّ من دراسة الموضوع دراسة مركّزة تنشر في كتاب يبقى ويمعن الناس فيه النظر، فاعتزم تحرير تلك الدراسة.

وعندما أحب معالجة الجانب الديني في الموضوع توجّه بأسئلة مكتوبة إلى شيوخ ذلك العهد ممن يقتعدون المناصب الدينية السامية وتلقّى عنها أجوبتهم، وعندها شرع في تحرير دراسته عن المرأة التونسية المسلمة من الناحية الاجتماعية ثم من ناحية الدين الاسلامي فكانت تلك الدراسة كتاب «امرأتنا في الشريعة والمجتمع».

ومعلوم أن الأستاذ الطاهر الحداد كان في طليعة الشبان الذين أسهموا في تأسيس الحركة الوطنية بتونس وإنشاء الحزب الحر الدستوري التونسي برئاسة المرحوم الشيخ عبد العزيز الثعالبي، وكان من أنشط العاملين في نطاقه، ولكن تخاذل طريقة العمل التي كان يسلكها الشبان الآخرون في الحزب أثارت سخطه وانتقاداته ثم انتهت به إلى التخلّي عن العمل ضمن تلك المؤسسة السياسية بعد أن يئس من إصلاح حالها ونتج عن ذلك حقد الذين انتقدهم عليه وإضمار العداء له، حتى إذا بلغ إلى أسماعهم تأليف كتابه عن المرأة انتهزوها فرصة للتشفّي ومحاربته للتخلّص منه.

ولتعلم الأجيال الجديدة ذلك، أذكر لهم أن الحملة على الكتاب سبقت صدوره وان جو التشهير به كان يهيأ في الحين الذي كان فيه الكتاب تحت الطبع

بالمطبعة الفنية لصاحبها المرحوم محمد التليلي، وقد كان أعداء الحداد الشخصيون وخصومه السياسيون يغرون صغار عملة المطبعة المذكورة بسرقة نسخ من كراريس الكتاب التي يتم طبعها وتسليمها لهم ليبدأوا تشهيرهم وحملتهم على المؤلّف ويحولوا دون رواج الكتاب عند صدوره بما يذيعونه حوله من تشويه لمحتواه وتزييف لمقاصده.

وفعلا فلم يكد يصدر الكتاب حتى كان الجو قد تمّ تسميمه ضدّه وشاعت الأقاويل التي لفقها خصوم الحداد على ألسنة الناس والعامة فأخذوا يردّدونها دون أن يطّلعوا على ما في الكتاب.

وهنا تتجسّم الجريمة التي اقترفت ضد الحق.

وإزاء هذه الحملة الطاغية التي استخدم فيها الخصوم سلاح الدين ليستفزّوا شعور المواطنين في ذلك الحين، إزاء ذلك قررنا نحن أصدقاء الحداد الذين نشاطره آراءه في القضية، إقامة حفل تكريم له بمناسبة صدور الكتاب حتى لا يهضم الفكر الاصلاحي في تونس وحتى نرد الفعل فلا نترك الرأي العام نهبا في أيدي أولئك الخصوم، وكان الحفل في قاعة الكازينو البلدي ببلفيدير واجتمع عدد كبير من النخبة التونسية وألقيت الخطب والقصائد في تمجيد الطاهر الحداد وعمله البليغ رغم دعايات الخصوم ورغم ما بيتوه من الاعتداء على أشخاصنا عند ذهابنا إلى الحفل حيث جمعوا عددا من الفلتاء ووزعوهم تحت أشجار حديقة البلفيدير حتى إذا ما مرّ منّا أحد في طريقه إلى الكازينو انقضّوا عليه وعبثوا به، ولكن الحفل تمّ على الوجه الذي أردناه له وكتبت عنه صحف ذلك العصر حسب أهوائها وحسب إسهامها وبعدها عن الجريمة كما كتبت الصحف في الخارج.

أما دور المشائخ الماسكين يومئذ بسلطان المناصب الدينية الرسمية فقد وقفوا من الحداد مواقف سجلها لهم التاريخ بما يستحق أن يسجّل الانحراف عن دين الله الحق واستطاعوا بسلطانهم الاداري أن يجرّدوه من إجازته التي أحرز عليها بكدّه ومعرفته ولكنّهم لم يستطيعوا أن يجرّدوا فكرته من الحياة والنجاح بعد موته.

والشيء الذي أثار غضبهم ولم يعلنوه هو نشر أجوبتهم عن سؤالاته في

الكتاب وكانوا يظنّون أنها لا تنشر وأنه سيحتفظ بها لنفسه، فإذا هي فضيحة تسجّل عليهم.

كانت حملة الخصوم المسمومة تشتد وتعمل في سواد الشعب عمل الخمر، فكان الحداد وصحبه مطاردين أينما حلوا أو جلسوا تنهال عليهم الشتائم ويرمون بحجارة الفلتاء، وكثيرا ما دارت معارك بين المدفوعين من طرف الخصوم وبين أنصار الحداد.

وذات مساء كنا جلوسا بمقهى القصبة في الصائفة فإذا ببعضهم يتحكّك بنا ويوجّه لنا الشتائم ونعوت الكفر والالحاد ويحاول الاعتداء المادي علينا، وإذا بجمع من أصدقائنا يتصدّون لهم ويعملون فيهم ضربا ولكما وتتطاير كراسي المقهى لتبلغ ثكنة القصبة وتدور معركة حامية شارك فيها الفنان الكبير الأستاذ محمد عبد العزيز العقربي وشقيقه والرياضي الشهير السيد الباجي سليم ويتدخّل الجند الفرنسي المرابط بالثكنة ليوقف المعركة التي أصيب فيها أتباع الخصوم برضوض في جباهتم وأبدانهم ففروا مولّين الادبار.

وقد انتقمت روح الحداد بعد موته من خصومه فتحطّموا في معركتهم مع الدستور الجديد وأصبحوا محلّ شتائم الشعب وبصاقه لا سيما في مؤتمر غرنوطة الذي كان فيه أصحاب الحداد أبرز العناصر التي أطاحت بالفئة الطاغية.

وعزل المشائخ الذين اعتدوا على الحداد من مناصبهم وتعرّضوا لاهانات الشعب لهم.

ومنهم من ألّف كتابا يهاجم فيه الحداد ويرد على آرائه بأسلوب سخيف فقير الحجج والمنطق، فهذا أصيب بفضيحة حيث لم يستطع خلاص المطبعة التي طبعت الكتاب فيما لها عليه من أموال فرفعت به قضية حكم فيها ضده وحجزت المطبعة الكتاب وأصبح يباع بالكيلو بثمن بخس ثم لم يمض وقت طويل حتى تزعمت كريمته الحركة النسائية بتونس.

واليوم بعد هذه السنين تصبح المرأة التونسية مخلوقا موفور الكرامة كامل الحقوق وتفتّح في وجهها كل الأبواب التي أوصدها الحمق والانحطاط والانحراف

عن تعاليم الدين الحقة وتساهم في معركة تحرير الوطن فيكون لها فضل في تحرير هؤلاء الذين أرادوا إذلالاها وقتلوا من تصدى للدفاع عنها.

وتصدر مجلة الأحوال الشخصية تقر الكثير مما نادى به الحداد ورفاقه.

ألا يا أمتي.. فكّي القيودا

رثاء العبيدي للحدّاد

يوم دفن في 8 ديسمبر 1935

قفوا حيوا المجاهد والعميدا — وصلوا... فالنبوغ قضى شهيدا
قفوا وابكوا الرجولة والمبادي — فذا معناهما أمسى لحيدا
رأى جبارنا الوطن الشقيا — وأبصر عيش أمته النكيدا
فذابت نفسه ألما ممضى — أثار بصدره روحا فريدا
وجرد في سبيل الحق عزما — قويا صارما يبلى الحديدا
يدافع عن شريعتنا ويبدي — لفهم مرامها رأيا سديدا
ويأسف من بني وطن رآهم — لفرط جمودهم عاشوا عبيدا
فصاح الصيحة الكبرى ينادي — ألا يا أمتي.. فكّي القيودا

⁂

أخي إن ساءك السفهاء سواء — وكان زمانكم نذلا كنودا
فلا تحزن.. فذا التاريخ عدل — سيمنح إسمكم منه الخلودا
وموتك في مباديك حياة — وذكراكم ستغدو للدنيا عيدا

الباب الثالث

في أهمية التعليم ووجوب إصلاحه

الباب الثالث جمع كتابات الأستاذ الهادي العبيدي التي تبين فكره حول دور التعليم في رقي المجتمع وانعتاقه سياسيا وحضاريا ووجوب إصلاح مناهجه لأن المعرفة في تطوّر مستمر. هذه الأفكار أصبحت في زمننا الحاضر بديهيات لكنها في أواخر العشرينات لم تكن كذلك. وكان التعليم جله دينيا وبرامجه أكل عليها الدهر وشرب، ورغم عقم تلك البرامج وعدم مسايرتها لتطور المعرفة والعلوم فقد كان مشائخ التعليم متشبّثين بها ولا يريدون لها بديلا.

سيجد القارىء في هذه الفصول تحليلا للوضع التربوي السائد انذاك والطرق التي نادى الكاتب إلى استعمالها لاصلاحه سواء كان ذلك التعليم دينيا أو علمانيا وفي خصوص هذا الأخير فقد طالب الكاتب بضرورة تعريبه وتونسته حتى لا يقع تثقيف أبناء تونس ثقافة أجنبية مستوردة تمهيدا لعمليات التجنيس التي كان المستعمر يخطط لها. كما ربط الكاتب انتعاش الاقتصاد التونسي والمجتمع برمته، بإصلاح التعليم وتطويره. كل هذه الفصول نشرت بجريدة «الصواب» سنوات 1927 ــ 1928 و1929 أو جاءت في صورة محاضرات ألقاها الأستاذ العبيدي في مناسبات ثقافية في سنة 1947 بالتحديد.

التربيـــة والتعلـيـم

وليس بعـامـر بنيـان قـوم
إذا أخلاقهـم كانـت خرابـا

نعم لقد صدق أمير الشعراء شوقي وأصاب كبد الحقيقة. فالتربية والتعليم هما الأمران اللّذان يجب ان نبذل ونجازف بكل ما لدينا من نفيس في سبيل الحصول عليهما والتحلّي ببرودهما القشيبة حتى يمكننا حفظ ذاتيتنا وكياننا من التلاشي والنقاص.

وليعذرني قراء «الصواب» الكرام ولا ينظرون لي، نظرتهم إلى المبالغ إذا قلت اننا في حاجة إليهما سيما في هذا العصر ـــ بدء النور ومحاولة التخلّص من أسر فوائد منكرات ـــ ولا حاجتنا إلى المأكل والملبس وما به قوام الحياة. وكيف أكون معاليا ومشطا والانسان في استطاعته أن يعيش بغير المأكل والملبس ويقاوم عضات الجوع الأليمة وتجبّر العناصر الهوجاء وأما بغير التربية والتعليم فذلك من الصعوبة بمكان.

وما العلم وحده مطفيء حرّ ظمئنا المتوهّج إلى النهل من منبع الحرية الزلال واشتياقنا المتزايد إلى تبوّء مكاننا بين الأمم فوق أديم هذه الأرض وتحت قرص الشمس :

والعلم ان لم تكتنفه شمائل تعليمه كان مطية الأخلاق
لا تحسِبَنَّ العلم ينفع وحده ما لم يتوج ربّه بخلاق

وربّما كان العلم مع فقدان التربية الأخلاقية شرا ووبالا على المجتمع إذا يستعمله ربّه في مشتهياته وينصبه أحبولة لايقاع الغير تشقيا وإجابة لصوت النفس الخبيثة. وهاكم مثالا يجعلكم لا تشكّون بعد إيراده في أن العلوم وحدها لا تسمن ولا تغني من جوع :

نرى اليوم شبابنا المتعلّم في المدارس الأروبية إذا ما أحرز على شهادة ولو كانة تافهة وليست ذات قيمة معبّرة خلع عنه رداء الدين وطرح أخلاقه وعوائده القومية وراء ظهره. ولو تحلّى بالأخلاق الغربية وأفرغ في القالب الغربي لقلنا مسكين فهو فتى قد اغترّته مدنيّة الغرب وخلبته بهرجتها الخدّاعة فاندفع وراء تيّارها تحت تأثير داعي الاعجاب والانخداع وسيندم بعد حين.

ولكن هذا الفريق — ولا أعني غير المتفرنج — قد وقف في الوسط بين الغربيين والشرقيين وإذا أخلاقه مزيج من الأخلاق الشرقية والغربية، فلا هي شرقية بحتة ولا هي غربية خالصة وما أشبهه والحالة تلك بالوطواط..!

والآن فما قولكم أو هل بقي عندكم ريب في أن العلم ينفع وحده وقد رأيتم حالة هذا الشباب المتعلّم ؟ ولكن لا يظنّ القرّاء أننا إذا استشهدنا بالحوادث على عدم صلاحية العلم مع فقدان التربية نقصد بذلك تنفيرهم من العلم والتعلّم. كلّا ومعاذ الله إذ نحن أوّل من يحثّهم على الكراع من ينابيعه ويصفق طربا وسرورا بأن يرى الأمة قد أقبلت عليه وشرعت بواجبها نحو الشبيبة والوطن إنما غايتنا ممّا تقدّم كله هي بيان فوائد التربية وتوقف وصولنا إلى المبتغى عليه.

ولعل هناك من القرّاء من يضل عن مقصدنا في قولنا التربية فيظنّ أنها نظر التلميذ إلى معلمه نظرة إلى غير بشر أو الاستسلام والجمود أمام مقرّرات القدر..؟ لا. فليس هذا ما يعني بالتربية وغلط فاحش تفسيرها بهذه المفاهيم بل ذلك حين وخنوع التربية بريئة منهما، قبل كل شيء إنما التربية الصحيحة التربية القومية الحقة وهي أن تثقيف عقول أبنائنا بالمعارف المفيدة مشوبة بالاباء وعزة

النفس والاتّكال عليها مع اعتبار الدين والاحتفاظ به وانماء الشعور الوطني والميل إلى بني جنسنا وتعمير أذهانهم، بدل الخرافات والبدع السائدة الآن بمئاثر الأولين وجلائل أعمالهم وحثّهم على تحديهم ومتابعة خطاهم هذا رأينا في التربية إن كان ثمة آراء وأقوال...

وكأني أسمع بعضهم يقول : ومن يقوم بهذه الوظيفة الشّاقة ؟ وأراني أمام هذا السؤال أقف حائرا متردّدا بين الاجابة والصمت لا أدري أيهما أحرى فالإجابة عليه تستدعي كثيرا من الكلام وطول الوقت ونحن في غنى عنهما إذ لا نريد في هذه الحالة إلا الذكرى التي تنفع المؤمنين واستنهاض همم القراء إلى واجب قد أهملوه.

ولنجب عنه بقدر ما يسمح لنا المقام فنقول : ان المنبع الذي يستقي منه الطفل التربية والأخلاق هو حضن أمه تلك المدرسة الأولى التي ترسخ مباديها في الذهن فلا تفعل فيها معاول الدهر أو قذائف الأيام. وهل يلين إذا قومته الخشب. فالأم إذن هي المسيطرة علينا والتي بيدها دفّة حياتنا تديرها كيف شاءت.

ولكن قل لي هل قمنا بإزالة المكدّرات عن هذا المنبع، فعلمنا بناتنا وهذبناهنّ أم نحن إذا سمعنا صوت داع لذلك ولينا عنه مدبرين وقلنا إن هذا إلّا إلحاد بالدّين وتجْديف عليه فسهونا عن الحديث «طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة». واننا لم نقم بهذه الفريضة فنحن إذن الملحدون..؟

ولنأخذ بيد القارىء ونخترق المدارس الأهلية أو قل مدارسنا الحرة البند الثاني بعد حضن الأم، فماذا نجد يا ترى ؟ نعم قد يوجد بعض التربية القومية والميل إلى بني جنسنا ولكنها مشوهة بطلاء من الأضاليل والأوهام مع التعصب الأعمى والتقديس لما وجد عليه الاباء عاكفون وليس السبب في سواقط أخلاقنا إلى الثرى سوى مديري هذه المدارس اللذين لا يحسنون اختيار الأساتذة وإلا فكيف يوكلون أمر التعليم وتهذيب النفوس إلى أناس لا نقول معدومي الأخلاق ولكن لم يكتسبوا أخلاقهم من مصدر نقيّ من المسممات ثم نحن نرجو من بعد ذلك أن نرى شبابنا غيورين محافظين على أن تشوه محيا دينهم خزعبلات الدّجالين ومثقفين في خدمة وطنهم بدون تعصّب أو تطرّف ممقوت.

وكيف يصحّ لنا أن نؤمل ذلك والأساتذة بيننا لا يفقهون من التربية والتعليم سوى ملء أدمغة تلاميذهم بقواعد العلوم ومئات المواعظ والحكم وهم لا يرونها مطبقة في شخص أستاذهم وهو قبلتهم في كل أعمالهم والذي به يقتدون.

إن أساتذتنا بعملهم هذا يحكون ذلك الذي جلس إلى الشاطىء وأخذ يكتب إلى صفحات مائه حكما ذهبية طمعا في بقائها وما إن رفع ريشته حتى يتخلص كل ما صنعه بين مطاري والأمواج الساحرة.

فالتربية أيها المديرون يجب أن تعيروها جانب الاهتمام قبل كل شيء وهذه صفحات التاريخ أمام الأنظار فلنقلبها لنرى ما تقصه علينا من أخبار أمم وشعوب تسنمت ذروة المدنية وسادت العالم كان رائدها الأخلاق والتربية والتهذيب ولنجعل هؤلاء أساتذتنا ونقتد بهداهم حتى نظفر بالغاية المنشودة.

هذا ولا يحسبنّ حضرات الأساتذة إننا ننتقصهم بانتقاد فريق منهم ويشهد الله إننا لم نقصد ذلك. وإنما هي الحقيقة يجب أن لا تبقى تحت عناكب النسيان والغفلة وإن كان فيها نوع من المرارة. على أنني لم أر من بين كتّابنا وما كتبوا عن التعليم وسطروا عن التربية من تنبّه لهذه المسألة مسألة اختيار الأساتذة الأكفّاء. ولا بحثوا فيها كأنها لم تكن شيئا ذا قيمة ولا يتوقف عليه نهوضنا وترقينا وعسى أن نرى منهم من يطرق هذا المبحث بما يتطلّبه من بيان شاق وخبرة واسعة لينتبه المديرون وأنا مع القرّاء منتظرون.

جريدة «الصواب» في 11 نوفمبر 1927

اللغة العربية وحفظها في المدارس

افتتحت السنة الدراسية لهذا العام فأقبل الشعب على اختلاف نزعاته على أبواب المعاهد العلمية يودع بها فلذات أكباده ليرفع عنها كابوس الجهل الأليم. ولقد كان الاقبال عظيما حتى ضاقت المدارس على إيواء عدد كبير من التلاميذ وهو أمر يدلّنا دلالة جليّة على أن هناك نهضة مباركة وأن الأمة قد أخذت تستعدّ للحياة وتنقضي عن أجفانها غبار الكرى العالق بها زمنا طويلا. فصفقنا سرورا بهذا الانقلاب الفكري المطرب عقب النومة العميقة التي نامتها البلاد حتى ظنّناها نومة أبديّة وتفاءلنا بمستقبل زاهر وتطورّ ناجح ينتهز الشعب فرصته للخروج من الظلمة التي لبث يتخبّط في ديجورها أحقابا عدة.

أجل. سرّنا ذلك ولكن ما علمنا أن انقلب السرور أسفا عميقا واستحالت الغبطة حرقة تصهر منا الضلوع وتضرم في القلب نارا حامية. وما ذلك إلا لما رأيناه من عدم الاعتناء بتعليمنا العربي واعتبار اللغة العربية في برامج مدارس الحكومة من المواد الناقلة التكميلية كالتصوير والرياضة فيصدر التلميذ عن المدرسة ومعلوماته بلغة جنسيته ومعتقده لا تزيد عن مبادي القراءة والكتابة البسيطة. هذا إذا كان للتلميذ ميل من نفسه نحو اللغة العربية وإلا فيبارح المدرسة وهو عارف المباينة بين الأحرف العربية وسواها ليس غير.

نحن لا ننكر أننا في حاجة إلى تعلّم اللغات الأجنبية الحية سيما اللغة الفرنسية التي لنا علاقات وروابط بأبنائها تضطرنا لاستكناهها ودرسها لأنها لغة الاختراع والفنون الحديثة ولغتنا العربية لم يتسع صدرها بعد لمصطلحات هذه الفنون كما يجب. إنما لا يلزم من ذلك أن نبقى جاهلين بلغتنا التي كان حقا علينا أن نتقنها قبل سواها لو كنا أمة لها ناموسها وشأنها في الجمعية البشرية ضرورة أنها لغة الدين الذي ندين به والشريعة التي نحن بها عاملون.

واضحٌ إلى ما يقوله الفيلسوف العلامة الأستاذ قوستاف لوبون في كتابه «سرّ تطورّ الأمم» لتدرك الهفوة العظمى التي ترتكبها بالتهاون باللغة والاعراض عنها قال :

«... والحاصل أنه يجوز أن تفقد الأمة شيئا كثيرا من مشخصاتها وان تنتابها محن كبرى ثم تسترد قوتها وتنهض ثانيا ولكنها لا تقوم من رقدتها إذا ضاعت روحها (يعني اللغة) وهو معنى قول المرحوم مصطفى كامل : «إضاعة اللغة تسليم للذّات».

وتلك حقيقة ناصعة وحكمة لا غبار عليها إذ ليست الأمة إلا مجموع تلك الميزات التي تتكون منها ذاتيتها أو ما يدعى القومية واللغة أعظم تلك الميزات وأشرفها فهي إذن روح الأمّة أي كل شيء لها في الحياة وماذا يفيد أيّ شعب كان أن ينشأ عدد كبير من أفراده يبرز في مختلف الفنون والعلوم مطبوعين بطابع أجنبي وتعقد ألسنتهم رطانة وعجمة غريبة عن اللغة القومية ؟

ولكن هي سياسة للتفوق تبدو في كل شيء وحبّ الترقّع والسيادة لا يفارق أعمال القوم وإلّا فكيف تترك إدارة المعارف منفذا للأنانية تستولي عليها فتفسح في برامج التعليم مجالا واسعا للغة جنسها ثم تعمد إلى العربية فتعبث بها وتجعلها نوعا من المفكهات للتلميذ في حل من ان يتعاطاها أو يتركها.

ونذكر كما يتذكر القراء أنه علت في أواخر العام الماضي ضجة وجلبة اهتزّت لها قلوبنا فرحا إذ بشرتنا بأن جماعة من أهل البرّ قبضهم الله فاعتزموا أن يبذل كل منهم نصيبا من المال يؤسسون بمجموعه مدرسة عربية ثانوية حرّة لقد شاقتنا حقيقة هذه الفكرة وعددناها بارقة أمل تحمل وراءها منافع جمّة لهذه الأمة

المتعطّشة وما كادت تذاع بين الطبقات حتى خفت صوتها وانزوت بين مطاوي النسيان. فأفيدونا يرحمكم الله هل لازال مبتكرو هذه الفكرة يأكلون الطعام ويمشون في الأسواق أم هم قد ساروا إلى رحمة العزيز العليم؟ وما الذي ولّاهم عن فكرتهم وحال بينهم وبين تنفيذ ما يشتهون.

جريدة «الصواب» في ديسمبر 1927

شـــــذرات

كالعدم....

... طالما بحّت الأصوات وبلغ صداها عنان السماء في طلب اصلاح المعهد الزيتوني أو (الكلية) كما يقولون. وكثيرا ما أبانت الصحافة للقائمين بإدارة النظارة العلمية بجامع الزيتونة ضرورة إدخال العلوم العصرية ببرنامج تعليمه ولكن ذلك ذهب في الفضاء واحتوت عليه طيات الأثير ولست أدري لماذا...

نحن اليوم في مفتتح نهضة مباركة وعلى باب رقي وتقدم وهذان الأمران يوجبان علينا تقليد الأمم المتمدّنة الراقية في الأخذ بالأسباب التي بوّأتها تلك المكانة العليا حتى ننتهي لضالتنا المنشوة ونتبوّأ منصبا في دار ندوة هاته الحياة.

أسباب الرقي كثيرة ويطول بنا القول لو أخذنا في تعدادها ولكن نكتفي الآن بالسبب الأهم والداعي الوحيد ألا وهو التعليم. التعليم العصري النافع الذي يخلق من أطفالها أعضادا عاملة في المجتمع مفيدة لأمّتها وبلادها المنكودة. وبالأسف هذا النوع مفقود عندنا وإن إدّعى البعض أنه موجود بالمدارس...

طلبنا إدخال هذا النوع في معهدنا الديني الوحيد حتى يصبح كلية حرة تقدم للشعب بين آن وآخر رجالا أكفّاء عاملين على تخفيف ويلاته والصعود به إلى سلّم المجد والعظمة بعد أن قطعنا أملنا في مدارس حكومة الحماية.

ولكن شيوخنا الذين يمثّلون هيئة النظارة العلمية سامحهم الله أبوا أن يعيرونا اذانهم ظنّا منهم أنا ندعو إلى الكفر والالحاد ولو كان كذلك لكان أهون عليهم من طلبنا لادخال العلوم العصرية للجامع الأعظم والتدريس بأساليب عصرية موصلة إلى الغاية المطلوبة من تعليم الشبيبة.

أي فائدة تنجر للشعب من تلميذ يدخل الجامع فيمكث بين جدرانه السنين الطوال يتعلّم بأساليب عتيقة لا تظمن للطالب وصوله إلى بغيته وفي كتب عتيقة مرت على تأليفها مئات السنين ثم هو يقرأها اليوم في سنة 1927 ! يؤمل الشعب من مثل هذا وماذا يؤمل هذا الأخير من نفسه لا شيء وهم بذلك يعترفون...

وقد علمنا أخيرا أن الهيئة المشار إليها قد أدخلت على برنامج التعليم بالمعهد المذكور إصلاحات في هذه السنة فانشرحت صدورنا وتفاءلنا خيرا بانتباه مفكّرينا ولكن عندما سمعنا ورأينا هذه الاصلاحات تأسّفنا جدا وجدّا تأسفنا.

ما هي هذه الاصلاحات المزعومة ؟

إنها لا تخرج عن التنقيص من ساعات التعليم وبعض الكتب فهل هذا يسمى إصلاحا وما فائدته؟ ألم يكن الأولى عندما حذفوا بعض الكتب من البرنامج أن يعوّضوها بغيرها من الكتب في العلوم المفقودة هناك : العلوم العصرية النافعة ؟...

عار والله أن يبقى معهدًا علميا يأتيه طلاب العلم من كل فج عميق للارتشاف من مناهل العرفان ثم لا يجدون به ما يزيد عن الفقه والتوحيد والنحو والصرف ثم البلاغة والأصول وبأساليب عقيمة بالية.

ومما اخترعوه وسمّوه إصلاحا أن جعلوا في كل مرتبة ثلاث طرق في التدريس أجبروا التلميذ على تتبع الطريقة التي تعينها له النظارة ولم يتركوا له الخيار في اختيار الأساتذة الذين سيدرس عليهم كما كان الشأن في الأيام الخالية ولا جعلوا في كل طريقة أساتذة قادرين على تدريس الفن الموكل إليهم تدريسه، وانك لتجد الأستاذ متضلّعا في النحو مثلا ثم تأتي النظارة فتوكل إليه تدريس كتاب في التوحيد وهو قاصر في هذا الفن، الخ...

وقد تأفّف التلامذة من هذا النظام الذي هو في الحقيقة الفوضى والارتباك وأصبحوا غير مطمئنّين على مستقبلهم إذ أصبحوا يتعلّمون تحت رحمة اختيار السادة النظارة وهي حال مدعاة للأسف وأمسى لسان التلامذة منشدا :

ربّ يوم بكيت منه فلمّا صرت في غيره بكيت عليه

وعسى الله أن يهدي مشائخنا إلى طريق الصّواب فيعلموا أن غايتنا الاصلاح ما استطعنا وخدمة البلاد والدين والله يهدي من يشاء إلى الصراط المستقيم.

جريدة «الصواب» سنة 1927.

مدارسنا وأساليب التعليم بها

أريد أن أبسط هنا في صراحة تامة كلمة عن مدارسنا الشعبية — على ندرتها — وحول الأساليب الدراسية بها وهل التعليم الموجود بها هو التعليم القومي الذي نصبوا إليه ؟

ليس من شك في أن التعليم الموجود بمدارس حكومة الحماية غير واف برغباتنا والذي نؤمله من وراء إيداع الشباب في المدارس من تهذيب قومي وثقافة إسلامية لا تكدرها شائبة أو زغل ما. ومع ذلك فنحن مضطرّون إلى الارتشاف من مناهله والتهافت عليه لفقدان التعليم الوطني القومي بهذه الديار وعدم فهم الشعب التونسي لفائدة التعليم مطلقا وهذان الأمران يجبراننا بحكم الطبع على الأخذ بالموجود كي يتسنّى لنا بواسطته الاستعداد إلى الحصول على الغاية المنشودة.

ورغما عن خلو هذا التعليم من العناصر الآنفة الذكر فقد انتج لنا — والحق يقال — شبيبة لا نبالغ إذا قلنا إن أفرادها هم زعماء نهضتنا الحديثة ورؤساء الحركة الاصلاحية اليوم وفي هذا كفاية للرد على من يقطع الأمل ممن يتعلّم تعليما قوميا ويصور التعليم العالي خطرا هائلا يجتاح الوطنية والعروبة إلى آخر ما تمليه النفوس الفاترة المستسلمة.

نحن لسنا من أعداء التعليم القومي — ومن غير المعقول أن نكون كذلك — وإنما نرى أن فكرة التعليم لم تنضج بعد بيئتنا والتونسي لم يدرك فائدة التعليم

إدراكا صحيحا حتى يفتح يده ويضحي بكل مرتخص ونفيس في سبيل إنشاء معاهد يستقل بها في تعليمه ويستغني عن الاقتيات من فتات موائد الغير... بل ما زال فينا من يرى أن إرسال ابنه للإشتغال بإحدى الحرف الحقيرة أحسن من إضاعة عمره في المدرسة !

فحسبنا اليوم إفهامه ذلك إفهاما جيدا وبث دعوة العلم بكل الوسائل ومتى أحرزنا على انتشارها ونجحت بإقبال الأمة على دور التعليم مع اختلافها نكون في غنية عن دعوتها إلى إنشاء المعاهد التونسية الوطنية والمدارس لأنها تندفع بنفسها وتبعث بها الحاجة إليه تحت تأثير إدراك الحقيقة الخفية اليوم.

نعم قد استفزت الهمة فريقا من الشعب فأسس مدارس أهلية نادرة جدا وأوقف عليها أوقافا يصرف ريعها في صالحها وإبقائها حية ينتفع بها أبناء الوطن، ولكن لنختبر هاته المدارس التي يطلق عليها اسم مدارس أهلية ونفحص ما نوجد فيها من تعليم وهل يسمى بحق تعليما قوميا؟ إن من ميزات التعليم القومي أن تكون فيه اللغة الوطنية أوفر حظّا وبها تدرس جميع العلوم ونحن متى فتشنا عن هذه الميزة في هذه المدارس نجدها مفقودة، فاللغة العربية ما فتئت منبوذة بالعراء كالمدارس الأخرى لا تدرس إلا في دائرة ضيّقة، والتاريخ العربي والاسلامي على الخصوص دروس مشوشة مشوبة بخرافات وسخافات والعلوم الحديثة لا تدرس إلّا باللغة الفرنسية مع أن هناك كتبا مؤلّفة في هذه المواضيع بالعربية. وهناك مسألة أخرى من الأهمية بمكان يجب أن نبسط فيها القول طويلا وهي مسألة اختيار الأساتذة والمدرّسين فإن هاته المدارس قد ملئت بأناس أرى أن في إطلاق لفظة أستاذ على أكثرهم تهاونا بمقام الأستاذية واعتداء صريح على أولئك الأجلّاء اللّذين يصح أن يدعوا بحق أساتذة ومدرّسين إذ الأستاذية لقب ليس من الانصاف أن نتساهل في إطلاقه على أناس لم تتوفر فيهم شروطه وانك لتجد الواحد منهم يحمل شهادة حقيقة لا تسمن ولا تغني من جوع ثم يتولى تعليم مئات من أبناء الوطن وهو أفرغ من فؤاد أم موسى، والآخر يضيف إلى بساطة المعلومات فساد الأخلاق وسوء السيرة ثم نوكل إليه أمر تهذيب الشبيبة وتقويم أخلاقها وهو من علمت انحطاطا في الأخلاق ودناءة في الطباع، وبإذني سمعت أحد هؤلاء مرة وهو في

قسمه بين تلاميذه يشرح في إطناب وتحليل قول امرىء القيس : ومثلك حبلى قد طرقت ومرضع وسمعته نفسه وهو يقرأ التاريخ يقص على تلاميذه كيف فرّ عنترة بحبيبته عبلة، وكيف جنّ قيس بعشيقته؟! كل هذا يدعى تعليما قوميا وتربية وطنية تدعونا للفخر بأن لنا مدارس قومية معلّق على خريجيها آمالا عظاما... أليس كذلك يا من تحلمون بالتعليم القومي وتريدون أن تخلقوا شيئا، أبانت الظروف والتجارب أن حينه لم يحن بعد. إنه ما زال جنينا في بطن الأيام ستتمخض عنه في يوم بعيد؟؟ فعلى مديري المدارس نوجه اللوم المر ومديري المدارس أنفسهم لا يستحقون هذا اللقب لأنهم لم يتأهّلوا له ويعدّوا العدة قبل استلامه. نلومهم وننكر عليهم تساهلهم في قبول كل من قال : إني أستاذ دون اختبار صادق لأخلاقهم ومعلوماتهم كما يقضي به الواجب والوطنية.

وإن أستاذا لم يدرس فنّ التعليم البيداغوجي مهما نبغ في العلوم والفنون الأخرى لمرتاب في إخراجه تلامذة كما يجب ومن سوء طالع أساتذتنا عفى الله عنهم إن كانوا لم يدرسوا هذا الفنّ الضروري بمنزلة التعليم والأستاذية.

وأخيرا... إني أرجّح أن كثيرا من الأساتذة سيغضبون لهذا الكلام كثيرا جدا ولا عجب فالحقيقة جارحة ومرة.

أما أنا فسأقابل غضبهم الحاد بكل سكينة وهدوء لأني أشرح الحقيقة وأقوم بواجب وطني.

جريدة «الصواب» سنة 1928 لـ 4 ماي.

جامع الزيتونة الأعظم
وما نودّ له من إصلاح

في آخر عام 1927 وبمناسبة بعض تنقيحات أدخلت على نظام الدروس بهذا المعهد لم يكن رائد واضعها الحكمة والتبصّر كتبنا كلمة وجيزة أردنا أن نفتح بها موضوع إصلاح التعليم الذي كان يجيش به صدرنا من زمن بعيد. وقد أردنا بذلك الايجاز أن نختبر إحساس الأمة والتلاميذ وشعورها بالحاجة الماسة للاصلاح والتنقيح فوجدنا معارضة من بعضهم وسكوتا من التلاميذ اكتفينا بهما عن العودة للموضوع إلى حين يدرك الطلبة أنفسهم عقم البرنامج الحالي ويحسوا بالحاجة الأكيدة إلى إصلاحه.

وها قد تحقق ما كنا نتوقع وصدقت نبوءتنا ولم يمض إلا عام على نشر تلك الكلمة.

وفي الحقيقة إن برنامج الاصلاح الذي نوده لكلية قضينا تحت سقفها وبين أساطينها بضع سنين، ضروري جدا أو ربّما لا تسمح الظروف الحاضرة بتحقيق تنفيذه جملة وفي زمن قريب، فنحن نريد أن يتناول هذا الاصلاح كل النواحي : مواد التعليم وأساليبه كتب الدراسة، الامتحانات، إدارة الكلية، انتخاب الأساتذة وبالتالي نريد تجديد الحالة الراهنة برمّتها.

إذْ ما هي الفائدة في تعليم لا يمكن صاحبه من الحياة؟ وما الفائدة من معهد كالمعهد الزيتوني بين جدرانه ما يقرب من ثلاث آلاف طالب لا يقدر المتخرّجون منه ان يمثلوا دورا مفيدا لبلادهم المتعطّشة للرجال العاملين ويقوون على القيام بعمل منتج في الحياة العامة ؟

إن هذا كما يبعثنا على التفكير العميق المتواصل في إصلاح هذا المعهد إصلاحا يسمح لهذا العدد الوفير من الطلبة بأن يعمل في المجتمع وان يكون عمله منتجا وذا أثر واضح.

لقد أتى على الزيتونيين حين من الدهر كانوا فيه كالخشب المسندة لا يبدون حراكا يبرهنون به على أنهم من الأحياء ولحقتهم في هذه الأثناء إرهاقات كثيرة دون أن تنبعث من صدورهم انّة يفهم الناس منها أنهم مخلوقات تحس بالألم وتتأثر بالارهاق. ولكن العصر قد تغير اليوم وسرت بين الطلبة روح جديدة هي نتيجة ذلك التغير والتقلبات العامة في السنين الأخيرة وأن هذه الصدور التي ضمت بين أضلعها آلاما كثيرة قد ضاقت جدا ولم يبق لها إلا أن تتفجر إذا ازداد الضغط عليها. وقد ظهر الإنفجار في الحركة الأخيرة واعتصام الطلبة واستماتتهم في هذا الاعتصام رغم تهديدات حكومة الحماية المتكرّرة وإلحاق الاذى بالبعض منهم مما يدلّنا على استحكام حلقات الضجر بنفوسهم من الحالة التي أصبحوا عليها والتي لا تسمح لهم بالعمل لا لمصلحتهم الشخصية ولا لمصلحة الوطن إلا في مجال ضيّق جدا.

إن هناك نقطا عامة يجب أن تراعى إذا ما أريد الشروع في وضع برنامج جديد للتعليم بالمعهد الزيتوني وسيئات نتجت عن النظام القديم يتأكد السعي في قلعها.

ويكفي البرنامج الحالي ضررا وفسادا أن نلقي نظرة سريعة على الشبيبة المتعلّمة والجو الذي يحيطها من الفوضى والاضطراب في حد متهما للأمة والبلاد. فهذا التنافر الدائم بين الطلبة وتلاميذ المدارس وسوء التفاهم الذي حال دون اتحاد جهود الفريقين وصرفها قوية ناجحة في خير الوطن هو إحدى نتائج هذا البرنامج العقيم إذ أن نشأة الزيتونيّين على أسلوب قديم وتطبعهم به في الدرس والتدريس

والتفكير وكل المظاهر وخلوهم من علوم العصر وفنونه وأدبه من شأنها أن تخلق فيهم عقلية خاصة بعيدة كل البعد عن عقلية المدرسين الذين تشبّعوا بالنظريات الحديثة وكل اتصال بحوادث العالم وما يستجد فيه.

ومن هنا أمكن لكلمتي : ملحد وجامد أن يهجرا القاموس ويملأ أذنيك فيحا إذا سمح لك حسن الحظ أو سوءه أن تشهد اجتماعا مدرسيا زيتوني وتصغى في ذلك للحجج المستحكمة بينهم، تكرار هذين الكلمتين.

وهناك نقطة أخرى يجب أن تراعي وهي من الأهمية بمكان بل مشكلة اجتماعية ناتجة عن تكاثر المتخرّجين في كل سنة من هذا المعهد وهم على ما هم عليه من تكوين خاص ومعلوم، خاصة لا تجد في الحياة العملية إلا مجالا ضيّقا وبذلك يتكون لنا جيش من العاطلين يتزايد مع الأيام وغير خفي ما ينتج عن هذه البطالة من أضرار عامة. ولا يفهم من كلامنا هذا ان العدد من الطلبة الذي يتخرّج كل سنة هو عدد هائل لدرجة مللناها بل هو قليل جدا بالنسبة لبلادنا لو كان متثقفا تثقيفا يمكنه من التأثير في حياة الأمة مع قدرته على أن يحيا في خاصة نفسه سعيدا منعما فهذان مشكلتان إذا توفق الذين سيخططون هذا الاصلاح إلى حلهما فقد بلغنا ما كنّا نبغي وأمكن للبرنامج الذي نودّه لكليّتنا الزيتونية أن ينجح جملة. وحق لاخواننا الطلبة ان يبشروا أنفسهم بمستقبل زاهر وحياة باسمة.

هذه مقدمة صغيرة لسلسلة المقالات التي في العزم أن نتابع كتابتها بخصوص اصلاح المعهد الزيتوني المحترم وهي فكرتنا مجملة والغاية التي نرمي إلى الانتهاء إليها من وراء الاقتراحات التي سنبديها في المقالات التالية وفوق كل ذي علم.

مــواد التعليــم :

كتبنا في العدد الماضي كلمة عن إصلاح الجامع الأعظم كمقدّمة لما نوينا أن نقوم به من كتابة سلسلة مقالات في هذا الغرض نبدي فيها آراءنا في الاصلاح الذي نرغب من زملائنا الكتّاب أن يشاركونا بإبداء آرائهم فيه حتى يمهدوا بذلك

السبيل أمام اللجنة المؤلّفة لدراسته فنستبرّ باقتراحاتهم ونكون على علم برغائب الأمة وأماني مفكريها في هذا العدد.

واليوم نتناول بالنقد أول ناحية نود إصلاحها ألا وهي برنامج التعليم والمواد المقرر تدريسها بالجامع الأعظم موضحين لحضرات القرّاء وجوه النقص والخلل في هذا البرنامج. لقد يخيل إلى كل من يسمع عن جامع الزيتونة وهو ثالث الكليات الاسلامية الكبرى في العالم الاسلامي أن برنامج هذا المعهد يحتوي ولا شك على كل ما يخص الدين والجنس العربي مع الحديث من علوم العصر وفنونه. ولكن المطلع على هذا البرنامج لا يلبث أن يقول بكل خجل أنه ابتر من جميع النواحي وليس في مقدوره أن يمدّ الدين والجنس العربي بكبير فائدة أو يهيّء طلاب هذا المعهد لخوض المعترك الحيوي. فالعلوم الدينية ناقصة لا تكوّن لدارسها دائرة دينية متّسعة أو ثقافة حسنة تمكّنه من خدمة الدين والسعي في نجاحه. كما لا تسمح له العلوم الأخرى بمفردها بتقديم أي خدمة للجنس العربي الذي يجهله ويجهل لغته وتاريخ ادابه وعصوره. أمّا علوم العصر الحاضر والفنون الحيوية فإنها مفقودة منه كما يعلم الجميع. ولم نكن مبالغين عندما قلنا أن العلوم الدينية التي تدرس به ناقصة مبتورة. إذ ما هي هذه العلوم؟ أليست هي الفقه والتوحيد والأصول والفرائض؟ وما كانت هذه في يوم من الأيام بدالّة على تضلّع دارسها في دينه ولا لتسمح له بإفادة الدين وتمكينه. الحقيقة أن هذه العلوم لا تخرج لنا إلا رجلا نحار في بعثه فلا هو برجل دين لنقصه وعدم تضلّعه ولا رجل دنيا لخلوه من علوم الحياة وما تتطلبه الحياة من كفاءة عملية مفقودة فيه. فهو على ذلك لا يصلح اللائين ولا تصح نسبته لأحدهما. وقد يتّضح لك هذا النقص الفادح إذا علمت أن الكتاب والسنة وهما أصول الدين لا يدرّسان ولا يتفهمهما التلميذ إلا ما جاء عرضا أثناء دراسة تلك العلوم. أما فلسفة التشريع وحكمته فلا يشتمّ لها رائحة، أضف إلى ذلك علم الكلام حيث يدرس من مصادر مشوبة بالتحزّبات المذهبية والأهواء السياسية والخرافات والبدع التي اختلقتها الأدمغة الجوفاء.

ثم إن مما يزيدك اقتناعا بعقم هذا البرنامج وسوء أثره هو جهل الطالب الزيتوني بتاريخ ابائه وأجداده وجهله بالأدب العربي وتاريخه وتطورّ اللغة التي

يدرسها في كل العصور اللهم إلا بضعة أبيات يذكرها النحاة في ثنايا كتبهم بقصد الاستشهاد هي كل ما يعرفه من الأدب العربي أو تراجم بعض مؤلّفي الكتب التي يدرسها وهي كل ما يعرف من التاريخ. وأما العلوم والعصرية التي قامت عليها هذه المدنية الغربية الشامخة التي نشهدها ونعجب بها فإن الطالب الزيتوني لا يعرف أسماءها، فضلا عن الالمام بها والاطلاع على أسرارها. وان من كانت هذه حاله ليلحق ظلما بأبناء هذه الحياة التي من قوانينها بقاء الأصلح وإبادة كل ضعيف أعزل.

فقل بربّك بعد هذا ما عسى أن تكون نتائج هذا البرنامج من المصلحة وما عسى أن يقوم به الطلبة الزيتونيين من الأعمال النافعة؟ ولا أظنّك إلا مجيبا بالسلب مثلي وأنت تلعن الجهل والتعصّب وقلّة التبصّر التي ساعدت على إيجاد هذا البرنامج العقيم؟

إنا نرى لزوم إدخال تدريس الأدب العربي وتاريخه ضمن برنامج التعليم كما نقترح تدريس تفسير القرآن وشرح الأحاديث النبويّة وفلسفة التشريع في المرتبة الوسطى وتدريس التعبير الذي أصبح فن له قواعده وكتبه الخاصة وكذلك تاريخ العرب والعالم الاسلامي والتاريخ التونسي والجغرافيا والفلسفة الاسلامية بدراسة كتب الفلاسفة المسلمين ونشعر بضرورة إدخال العلوم الرياضية والطبيعية وقواعد حفظ الصحة ضمن هذا البرنامج حتى تتكوّن للتلامذة مَلَكة حسنة ودائرة متّسعة ويثقّفوا بثقافة عالية تمكّنهم من القيام بأعمال مفيدة لخير أمتهم وخير الانسانية. ويكون البرنامج مناسبا لمكانة هذه الكلية وشهرتها التاريخية الخالدة.

أساليب التدريس :

كل مسرح على سير التعليم بهذا المعهد يشهد بأن طرق التدريس هناك عقيمة ان لم نقل قاضية على ذكاء التلميذ ومواهبه. ويشهد بأن كتب الدراسة المقررة لا تفيد التلميذ فائدة يمكن أن يرجوها طالب يمكث بين أحمالها السنوات الطوال وهي عوض ذلك تضنيه وتكون العضد الأقوى لأساليب التعليم على إعدام شخصيته وعبقريته.

وما ظنّك بهذا التلميذ الناشيء الذي فارق (الكتّاب) وهو خال من الفكر غير قادر على أن توضع أمامه مسائل الخلاف والمناقشات الطويلة ليقضي فيها بعقله ونظره الذي لم يتكون بعد، يدخل الجامع الأعظم وإذا هو من أول يوم أمام هاته جميعا ومن سنواته الأولى يطلب منه أن يكون حكما بين المتجادلين من العلماء وان يميز غث الأقوال من سمينها!؟

وما رأيك فيه وهو لم يتعوّد بغير حفظ القرآن يطلب إليه أن يطالع كل هاته الأحمال من الكتب ذات الأسلوب القديم بما تنطوي عليه من متون وشروح وحواشي لم تكن كلها كافية لتوضح له المعنى ولا لتهديه السبيل في تلك الشعاب المتداخلة؟

أجل. ما رأيك في مثل هذا الطالب؟ ألا تقول أنه عوض أن تتربى له في السنين الأولى مَلَكة الفكر بالتدريج وعوض أن ينهل بملء فيه من العلوم مقتصرا على لبابها وقواعدها حتى يتمكّن بعد من النظر في تلك المناقشات وهي في الغالب لا طائل تحتها. وحتى يجد في ذلك لذّة عندما يطالعها ويرجّح بعضها على بعض وبذلك تكون ملكة النقد في طور التكوين.

إنه عوض ذلك تنهك قوّاه العقلية وهي لم تزل غضّة وتقف على النمو ولا يتمكّن من التضلّع في العلوم التي يدرسها لأنه لم يعتن بها وشغل عنها بنقل المناقشات والاشكالات التي يوردها المؤلّفون وحفظ ما دفعوها به وأجابوا عليها. ثم تنصرف كل مهمته في حفظ المتون وغيرها ويعتمد على حافظته التي تكونت له من الكتّاب.

ومن أجل ذلك ترى غالب الزيتونيين عبارة عن رجال ميكانيكيين يقرعون على مسامعك ما تحويه حافظتهم، اما اذا أردت أن تناقش أحدهم وحان أوان استخدام القوى الفكرية فلا يستطيعون من ذلك شيئا.

وانظر بعد ذلك إلى هذا الطالب المسكين وقد ترشّح للامتحان ولم يبق له من الزمن إلا قليل انظر إليه وهو تائه مشرود بين أحمال الكتب الضخمة ذات المجلدات الكثيرة لا يدري ماذا يطالع، أهذا العلم أم ذاك؟ وهذا الكتاب أم غيره؟

ثم أهذا المجلّد منه أم سواه؟. وها هو وقد أعييته الحيلة وسدّت في وجهه أبواب الرأي يعمد إلى كرّاس من هذا العلم وكرّاس من سواه وقد جمع إليه عشرات من الكراريس يطالعها وبعد قليل يجيء الامتحان وإذا هو يدخل مصفرّ الوجه منهوك القوى يهد أعضاءه الارتعاش وخوف الرسوب في الامتحان وما هي إلا عشية أو ضحاها حتى ينتهي هذا الامتحان مسفرا عن رسوب طالبنا المسكين وقد تحقق ما كان يتوقّعه ويخشاه ومر عام قد حسب من عمره لم يستفد فيه بشيء وانفق أموالا طائلة لم تكن لها نتيجة أو ثمرة تواز بها، وقاس لوعة فراق واغتراب عن الأهل ومسقط الرأس لم يتذوّق عقبها إلا مرارة الخيبة وحسرة السقوط والاندحار ومن الجاني سوى عقم الأسلوب وكتب التدريس المقررة؟

ومثل طالبنا هذا عشرات بل مئات قضى هذا الأسلوب وتلك الكتب على مستقبلهم واقفر الوطن من عقول ومواهب كانت تقوم له بجليل الأعمال.

ولنختصر فنقول ليس للتعليم بالجامع درجات متفاوتة بحسب ارتقاء المدارك وتطورّ الأفكار وان كان يخيل لغير المتأمّل إنها هناك فهو لا يقرر بوجود الدرجات الأولى التي يعتمد عليها كل من حاول الصعود في سلّم، وإنما توجد درجات بعيدة لايستطيع التسلّق إليها هذا الطالب القصير الأرجل. وإن فعل في التظاهر فهو لا يأمن السقوط إذا بلغ القمة وفقد التوازن.

وليست الكتب المقرر تدريسها بالجامع كتب تدريس وإنما هي كتب مطالعة تصلح لمن استوفى معلوماته الأولى وتروق له. أمّا هؤلاء التلاميذ الذين ما زالوا في بدء الطريق يتلهفون على أصول العلم لتملأ فراغ جهلهم وتسدّ نهمة أنفسهم الجائعة. أقول أن هؤلاء لا حاجة لهم بها وهي تضرهم أكثر مما تنفعهم وهل سمعت بصبي شهر يطعم اللحم ويناول الغلال؟

ولنكتف بهذا الآن مرجئين إبداء رأينا في الأسلوب الذي يحسن أن يتّبع والكتب التي يليق أن تدرس إلى العدد القابل وكل آت قريب.

جريدة «الصواب» 25 جانفي ـــ 8 و15 فيفري، سنة 1929.

العربيــة لغــة تعليمنــــا

إن مشروع القسم العربي للجامعة الجديدة الذي يهدف لمقاومة الجهالة في طبقات الشعب التونسي وينظم الصفوف العتيدة الجبّارة لمحاربة الأمية وبث الثقافة القومية وقوامها لسان العرب ولغة القرآن الحكيم. إن هذا المشروع واهدافه ما علمتم يهيب بكم للالتفاف حوله ومناصرته في تحقيق أغراضه بأن يتجند في صفوفه كل مثقف يدرك وسائل إنجاح قضيّة تونس، وأن يدعو له كل غيور يسرّه أن تكون حال أمته على غير ما هي عليه اليوم.

وأنتم مؤمنون بأن العلم قوام كل نهضة ورأس كل كفاح وأن الجهل سوس الأمم الذي ينخر عظامها ويفتك بها الفتك الذريع.

وأنتم تدركون أن سرّ تأخّرنا هو تجافي النخبة المثقّفة عن التنازل للأخذ بيد الطبقات الشعبية واستنكافها من أن تنجح في أوساط الشعب مرشدة مساعدة ناصحة لما يرفع من مستوى هذا الشعب وشأنه.

وتعلمون أن ذلك قد جرّ علينا شرا مستطيرا وأذى كبيرا، إذ بقي المثقفون في بروجهم العاجية منعزلين عن الشعب تمام الانعزال لا يختلطون به ولا تهمهم مشاكله وما يتخبّط فيه من ظلم واضطهاد وما يحتاجه من اتجاه رشيد وتنظيم وطيد. فعاشوا هم في القمم منكمشين على أنفسهم وعاش هو في الوهاد يتخبّط

في عمايته وآلامه ويضطرب في حيرته وتيهه ونتجت عن ذلك نفرة مؤلمة بين الشقين المثقف يحتقر الشعب لتعاسته وبؤسه المختلف الألوان. والشعب ينظر للمثقّفين نظرته للمبتزّين المستغلّين لجهوده وأمواله العائشين في دمه وسوء حاله.

تلك كانت حالنا قبل هذا العهد الأخير وذلك ما جرّ علينا الذلّة والتعاسة والشر المستطير.

ولكن دوام الحال من المحال كما يقول المثل. فقد شعر بعض مثقّفينا بأن الهوّة بينهم وبين الشعب تزيد كل يوم اتساعا وبأن الانسقامات تتعدد في رابطة الأمة التونسية فتتصرع جوانبها وتهيّء للعدوّ الفرصة ليزيد في إذلالها ويستسيغ التهامها، فنزل المثقّفون من بروجهم العاجية ومدّوا أيديهم للشعب واهتموا بمشاكله وقضاياه يدرسونها ويبحثون لها عن الحلول والعلاجات، ورأينا ذواتا بارزة من خيرة مثقّفينا وأسماء لامعة تنزل مختلف الميادين الشعبية وتختلط بالناس اختلاط الاصلاح لا اختلاط التاجر بحريفه الذي يغذّي مغازته ويروّج بضاعته.

وهذا حسن، يبهجنا ويسرنا ويدخل على نفوسنا التفاؤل بحسن المستقبل.

ولكن.. وكم تؤلمني لكن هذه. لكن بقيت المشكلة الكبرى بدون حل وهي أكبر عائق يبطىء سير الاصلاح الاجتماعي ويجعل النتائج المرجوة في اختلاط المثقفين بطبقات الشعب ضئيلة جدا وغير مأمونة الدوام. تلكم المشكلة هي التباين الجسيم بين مستوى المثقف ومستوى طبقات الشعب وهي السواد الأعظم. إذ كيف يتم اتصال مثمر بين مثقف واسع الثقافة تزخر دماغه بشتى المبادي العلمية والآراء الفلسفية والاطلاع الواسع على تقلّبات هذا العالم المتغيّر وبين أمي ساذج يجهل أبسط الأشياء لأنّ بينها وبينه سرا سميكا ولا يحسن القراءة والكتابة، إن جهود المثقفين في الاصلاح والتنوير والحالة تلك يكون شاقا جدا وعسيرا كل العسر.

وإن النتائج تكون ضئيلة وغير مأمونة الاستقرار والرسوخ، فسواد شعبنا محروم من أبسط أنواع المعرفة لأن الاستعمار يريده كذلك ليعبث بكرامته ومصالحه في اطمئنان من الفضيحة، ولأن الميزان التونسي الذي يتكون من أموال ذلك

الشعب لا يصرف في رفع الجهالة عنه ولا في حفظ صحته ولا في ازهار اقتصادياته وانمائها، إنما يصرف في إشباع بطون الآخرين لنجوع نحن ورفاهية المستعمر فمن تلفظهم مصالح بلدانهم لعجزهم ومن تضيق عنهم دواوين حكومتهم ليقوهم شر البطالة حتى أصبحت بلادنا مأوى للعجّز وجمعية كبرى لاسعاف البطالين وتخفيف وطأة الحرمان عن الأباعد.

تلك هي بعض الأسباب التي قضت على شعبنا بالجهل والأمية. ونحن رغم اننا لا ننفك صارخين في كل موقف وفي كل مناسبة بوجوب فتح المدارس في كل قرية وكل دشرة وتقسيط القسط الأكبر من الميزانيّة لهذا الغرض. رغم ذلك يجب أن لا ننسى مسؤوليتنا الخاصة، مسؤولية المثقفين إزاء بقية إخوانهم وبني جلدتهم من الشعب التونسي المسكين.

فيجب أن نعوّل على أنفسنا في انقاذ شعبنا من هذه الحال. يجب أن نتجنّد جميعا لشنّ هذه الحرب المقدسة على الأمية والجهالة، يجب أن نتحاشى تهديد نبيّنا ﷺ وهو القائل : «من كتم علما ألجمه الله بلجام من نار يوم القيامة».

في أنفسنا ربضت أمتنا. فإلى مذبحك أيتها الأمة سنقدم جهودنا وأمكانياتنا ثمنا للنهوض والخروج بك إلى النور.

هنالك في البوادي تونسي يشقّ الأرض بمحراثه، مغلول اليد، مغلول الفكر مغلول القدم..

وهنا في المدينة تونسي يدقّ الحديد، أنهكه الظلم. أنهكه الفقر، أرهقه المجتمع.

وفي الأزقة والشوارع شباب مشرّد تفتك به الأمراض، يفتك به الجهل، يفتك به اليتم والاهمال.

نحن طليعة هذا الجيل يجب أن نعرف مهمتنا، إنها النضال ونحن بها سعداء. وعندما تقوم أمامنا العراقيل نزدريها ونقول انها خلقت لنجتازها وعندما تكتنفنا الشدائد نبتسم ونقول إنها اختبار لعزائمنا.

وكما كنّا في القديم رسل حضارة وإنسانية فكذلك يجب أن نكون في المستقبل.

إن حالة شعبنا تدعونا لذلك وتُلحّ في الدعوة فهل أنتم ملبّون نداء الشعب أيها المثقّفون كونوا معنا للخروج بأمتنا من الظلمات إلى النور. إن المسؤولية ملقاة على جميع المثقّفين، وإن كتلتنا هذه ستقوم بمساندة ومناصرة المهمة النبيلة التي تضطلع منظماتنا الثقافية الأخرى من المعهد الخلدوني والشبان المسلمين وجمعية قدماء الصادقية. ونرجو أن تتشكل كُتَلٌ أخرى للنهوض بعبء الواجب القومي النبيل.

ويجب أن لا تقتصر هذه الحركات حركاتُ تحرير الشعب من أسر الجهالة على العاصمة وحدها بل الأكيد أن تنتشر في جميع بقاع البلاد التونسية وأن تعم القطر من أقصاه إلى أقصاه.

إن الشعوب الرشيدة تشكو الحكومات دائما ولا تعتمد عليها في النهوض بها إلى الأوج الذي تهدف إليه، لأن الحكومات المخلصة قلة في الأمم التي تملك زمام أمرها فما بالك في الأمم التي لا تملك ذلك.

لقد أرادت أمة المكسيك التخلّص من الجهالة ورفع الأمية عن أبنائها وكانت حكومتها من هذه الحكومات المخلصة القليلة، فعمدت في سنة 1944 إلى إعلان الحرب على الأمية، وحتمت على كل مكسيكي أن يُبرز في أواخر ماي من سنة 1946 شهادة تثبت أنه تعلم القراءة والكتابة أو علّمهما الذين يجهلونهما. وفي ولاية تاكو يسكوماك يستيقظ السكان الساعة الرابعة صباحا ليذهبوا إلى المدرسة. وفي ولايات أخرى من البلاد المسيكية تجذب السلطات السكان إلى مراكز التعليم بتوزيعها القموح عليهم.

وفي المكسيك يعتبر أميا من يقرأ أقل من 25 كلمة في الدقيقة ويفهم أقل من نصف ما يقرأ.

وفي المناطق الجنوبية من الولايات المتحدة كتكساس والمسيسيبي تبلغ نسبة الأميين 35 بالمائة. ويعتبر أميّا هناك من قضى في التحصيل أقل من خمس سنوات.

ولكن أنّى لنا حكومة كحكومة المكسيك ونحن نرزَح تحت وطأة الاستعمار، إن نداءنا يتّجه على الخصوص إلى معلّمي العربية لأنها أبرز فصل في برامج دروسنا لأن الشعب لا تتم نهضته إلّا متى أحسن الكتابة والقراءة بلغته القومية الرسمية ولغة البلاد التونسية هي العربية أحبّ من أحبّ وكره من كره. وإن بطاقات الانخراط في سلك الدروس تحت طلب من يريد الانخراط يطلبها متى شاء.

أما برامج دروسنا فسيقع نشرها في مطبوعة توزّع على الجميع، مصحوبة بأسماء الأساتذة والمواد التي يقع تدريسها ممّا يفيد شعبنا في نهضته ومستقبله.

فمن يبايع لإنقاذ شعبنا من جهالته وتدهوره؟ ألا في سبيل أمتنا العزيزة ما قمنا ونقوم به، فلتشهد الأجيال أننا أطهار من كل الأغراض والغايات إلّا هذه الغاية النبيلة، ولا هدف لنا إلّا هدف تخليص أمتنا مما ترزح تحته من أوقار وإعانة العاملين على بعثها بعثا جديدا لأن ذلك واجبنا الذي نؤمن وندين به.

10 فيفري 1947.

الباب الرابع

في الأعلام

الباب الرابع من هذا الكتاب يلخص فكر الأستاذ الهادي العبيدي فيما يتعلق بموضوع الصحافة والاعلام في مجتمع مثل المجتمع التونسي تدرّج من النضال ضد المستعمر ومقاومة الأمية، إلى مجتمع في طريق النمو.

وفي هذه الفصول يتجلّى فكر الكاتب السياسي ببعديه الوطني والقومي العربي، والأهمية القصوى التي كان يوليها الكاتب إلى مصارحة رجل الاعلام لقرّائه وقول الحق مهما كان مرّا، ووجوب مطالبة رجل الاعلام من موقعه في المجتمع بالاصلاحات اللازمة وإذا ما حاد عن هذه الرسالة فهو يعتبره خائن لرسالته ولضميره المهني.

من حسن حظ الكاتب أنه وجد في زمان صعب كأواخر العشرينات في جريدة «الصّواب» الغرّاء منبرا حرّا وجريء لأفكاره، ثم لمّا قفلت هذه الجريدة أبوابها وبعد مرور سنوات الحرب العالمية الثانية لم يجد الكاتب بدّا لمواصلة نضاله وتمرير رسالته وأفكاره من إصدار جريدته «الصّريح» مدة ثلاث سنوات دأب خلالها الأستاذ العبيدي على النداء إلى رصّ الصفوف إذ بدأت ساعة الخلاص من الحماية الاستعمارية تلوح في الأفق وبدأت التحضيرات حثيثة من طرف الوطنيين لبدء المعركة الأخيرة : الثورة المسلّحة، بعد أن تسلّح الشعب بالعلم والأفكار الجديدة. فكان «الصّريح» يمثل إسمه ويترصّد المخطّطات الفرنسيّة الأخيرة واليائسة وذلك بالرغم من العراقيل المادية التي واجهت هذه المؤسسة طيلة نشاطها.

ومن أسعفه الحظّ وطالع ما احتوته جريدة «الصريح» من مواضيع ثقافية وسياسية واجتماعية يمكنه أخذ فكرة واضحة على تصوّرات الهادي العبيدي لصحيفة يومية جامعة.

في هذا الباب اخترنا كذلك للقارىء فصلا يبيّن ما أسلفنا ذكره نشر في جريدة «الصواب» في سنة 1928 ومقتطفات من الكلمة الممتازة التي ألقاها الكاتب في أول مؤتمر صحفي عربي سنة 1964 ويتجلّى فيها فكره العربي القومي بوضوح.

دورنـــــا

أتى على الشرق حين من الدهر بات فيه فريسة الانقسامات والتشتت وعانى من جرّاء تفكك أوصاله عذابا أليما. وقد قام المصلحون أخيرا يدعون إلى الاتحاد ووجوب تأسيس الجامعة الاسلامية. وكانت أهم الوسائل التي رأوا أن يتوصّلوا بواسطتها إلى هاته الغاية الحميدة هي النشرات والصحافة التي تجوب العالم وتخترق عامة النوادي فتبث الدعوة وتهيب بأمم الشرق إلى التحابب. ولكن هي سنة الكون وناموس الوجود قضى أن يوجد بين أفراد كل أمة وفي كل وسط أناس لا يروق لهم إلا التفرقة والانقسام إذ به يغتنمون مآرب شخصية سافلة ويعبثون بمصلحة عالم وشعوب مقابل الحصول على شهواتهم الفردية.

جريدة «الصواب» سنة 1928

حتــى ننسجــم مع روح العصــر

ولن نتخلى عن لهجة الصراحة وقول الحق مهما كان مرا على أننا نلفت الانظار إلى الفارق بين الصراحة والوقاحة فنحن نضع النقط على الحروف ــ كما يقولون ــ دون أن نغلظ ـ القول ونفحش في الخصومة عملا بقول الله تعالى ﴿وجادلهم بالتي هي أحسن﴾.

فعلى الأمة أن تتنبّه إلى دورة الزمن وتراجع كثيرا من أساليب العمل والكفاح العتيقة حتى تنسجم مع روح العصر في دائرة الشرف والكرامة.

والله الموفّق للصواب

(*) الكلمة التي كتبها الأستاذ الهادي العبيدي لتقديم جريدته «الصريح» التي أصدرها في يوم الأحد 23 جانفي 1949.

الشـــوط الثالـث..!

بهذا العدد يختم «الصريح» السنة الثالثة من عمره المفعم بالكفاح والنضال ويقطع شوطه الثاني في ميدان الجهاد القومي المجيد والمرير معا.

وقد لاقى «الصريح» في سنتيه ظروفا صعبة قاسية واصطدم بعقبات جعلته يتعثّر ويكبو مرات وكانت العيون ترمقه في حسرة وتنتظر في إشفاق سقطته التي لا قيام بعدها ولكن الايمان المضطرم في صدره كان عزاءه وسلوته وكان حافزه ومعين قوته ومنار كفاحه فثبت للعواصف الهوجاء والضربات الثقيلة التي تحاصره من شتى جوانبه.

لم يكن «الصريح» صحيفة مجاملة ونفاق تحابي وتتمسّح بغوايات الجماعات وكبرياء الأفراد ولم يكن «الصريح» ورقة اتجار ومرتزقا رخيصا لصاحبه.

ولكن «الصريح» كان يمثل اسمه وينطبق فيما يتخذه من مواقف ويدعو إليه من رأي مع عنوانه فكان بذلك عسير الهضم على الأذهان المريضة والنفوس الحقيرة وكانت سحنته لا تروق للكثيرين ممن ألفوا البسمة الماكرة والكلمة المعسولة المنافقة فعاش متعبا مكدودا يشقّ طريقه في مشقة ويحاول إبلاغ رسالته في حرج وعناء.

ليذكر قراؤنا أن «الصريح» لم يدع في يوم من أيام حياته إلى فتنة أو ضلالة ولم يشجّع عملا إجراميا في حق الوطن وقد ساعد رجال الحزم والعزم وساهم فوق طاقته في التشهير بالظلم والاستبداد وحمى الطبقات التعيسة من ظلم الأقوياء والعتاة وكان شجى في حلق الاستعمار يصاوله وينازله في مكامنه وأعشاشه ويفضح مكائده وأحابيله.

إنّ «الصريح» لم يؤمل في يوم من الأيام أن يغدو وسيلة من وسائل الاثراء أو أن يتنصّب في عمارة ذات طوابق وريش بل كان زكاة يدفعها المثقّف نحو شعبه عن علمه وحساسيته فعاش عيش المجاهد المتقشّف وحارب الألواء والآرم صابرا آملا في الله.

جريدة «الصريح» عدد 81 لـ 31 جانفي 1951.

ميثاق رجل الاعلام العربي [1]

باسم صحافة تونس المناضلة هذه الصحافة التي كانت دائما في طليعة الكفاح بصوره المختلفة سواء الكفاح ضدّ المستعمر الغاصب حتى تطهّرت منه أرضها أو ضدّ رواسب ذلك الاستعمار والأقنعة الجديدة التي اختفى تحتها أو في عهد كفاح البناء ومحاربة التخلّف والبؤس.

واليوم لقد أصبح واجبنا الأكيد أن نتكتّل ونتآزر لتخليص فلسطين... فلسطين هذا الجرح الدامي في قلب كل عربي، وهذه الوصمة التي تلطّخ جباهنا.

والواقع أن هذه الوصمة لا تلطّخ جباهنا نحن كعرب فحسب، بل انها لتلطخ جبهة كل حر يلعن الظلم والاغتصاب، سواء كان عربيا أم غير عربي لأن الأحرار في كل مكان يقارعون الاستعمار واضطهاد الشعوب مهما كانت جنسياتها وألوانها وفلسطين بلد وشعب تسلّط عليهما الاستعمار من أبشع ألوان الاستعمار التي عرفها العالم وعلى هذا الأساس ينبغي أن يساند أبناء فلسطين في جهادهم من أجل حريتهم وكرامتهم لا العرب وحدهم فليست القضية عنصرية : ولكن كل الشرفاء في الدنيا.

وتونس التي نادت وعملت جاهدة لتصفية الاستعمار تؤمن أيضا بمبدأ آخر هو حق الشعوب في تقرير مصيرها بنفسها بعد الفوز باستقلالها.

ونحن نؤمن أن الكلمة أمانة ومسؤولية علينا أن نلتزم بهذا في كل ما تخطه أقلامنا وتنطق به شفاهنا فنترفع عن التعصّبات الضيّقة ونعمل ما استعطنا إلى ذلك سبيلا للتعرّف ثم التعريف بنشاط بلادنا العربية وبأوضاعها ونتعمّق فهم ظروفها ونقدر جهادها في سبيل الرفعة والتقدّم وتحقيق الرفاهية لشعوبها.

فأحرى بنا نحن الذين نمارس مسؤولية تغذية وتوجيه الرأي العام صباح مساء أن تكون معلوماتنا عن بلادنا العربية صحيحة ومضبوطة حتى لا نضلل جماهيرنا ولا نوقعها في الغلط.

ومن واجباتنا الأكيدة أن نفهم الرأي العام العربي بأن كل قوة يكسبها جزء من وطننا العربي هي كسب للعرب أجمعين.

إذا التزمنا هذه المبادىء وعملنا على هديها نكون ولا شك قد أسهمنا في نجاح المعركة التي تقدم عليها بلادنا العربية حيث نكون قد وفرنا لها أسباب النجاح وأبقينا على وحدة الصف.

ولا أحبّ أن نضيع وقتنا في الكلام لأن العمل في انتظارنا ونحن في بلادنا العربية أحوج ما نكون إلى العمل بدل الكلام.

---

(1) الكلمة التي ألقاها الأستاذ الهادي العبيدي في أوّل مؤتمر للصحفيّين العرب انعقد سنة 1964.

رسالتنا تربويّة أولا

«الفترة التي نمر بها في هذه السنوات من قرننا فترة صعبة... تجعلنا نشعر بالحرج اذا اعتبرنا أنفسنا مسؤولين لا عن حاضرنا فقط ولكن عن المستقبل أكثر... وأقول نشعر وأعني نحن رجال الاعلام الذين يتحدّثون صباحا مساء إلى الجماهير ويقدّمون لها الزاد الذهني لأنّنا مسؤولون مسؤولية كبرى أمام الوطن وأمام التاريخ وأمام كل المقدّسات... ان القيم قد ديست في الأزمان الأخيرة والأخلاق قد انهارت، وهذا يمثّل كارثة إن لم نتداركها سريعا طبعت مستقبلنا وحكمت على وطننا بالسقوط وعلى شبابنا الذي نعتمده لذلك المستقبل بالانحلال والتحلل من كل قيمه.

هذا لا يعني أن شبابنا كلّه قد انزلق في هذه الضلالات والانحلالات، فنحن نعتزّ بما تخرجه معاهدنا وجامعتنا من رجال استطعنا أن نحملهم مسؤوليّة التسيير لشؤون البلاد بكل اطمئنان، لكن هناك شباب آخر هو الذي تغمره هذه التيارات الوافدة من كلّ حدب وصوب، وهذه الأهواء التي تعصف به وهو ما نشير إليه بحديثنا وما نطالب به كل من له دور ومسؤوليّة من المعلّم إلى ما فوق ذلك حتى يعمل على الحيلولة دون اتساع نطاق هذه الكارثة القاتلة.

وإذا كان هذا الواجب يتحتّم على المعلّم والأستاذ، فإن الصحافة أولى بأن تلتزم به لأن دورها الحقيقي هو الارشاد والتربية والحماية فإذا هي تساهلت وسمحت بأن تتسرّب إلى اعمدتها أمور تجر إلى الانهيار الأخلاقي وقتل القيم، تكون قد خانت رسالتها وأصبحت معولا يهدم لا مصباحا يهدي إلى سواء السبيل. وهذا ما لا يسمح به شعبنا لأنّه غول يخرب ولا يبني.

البَابُ الخامس

في التقييم الثوري للإنتاج الأدبي والمسرحي والموسيقي

الباب الأخير يضم فكر الأستاذ الهادي العبيدي فيما يخصّ تقييم الانتاج الفني والأدبي وإرجاعهما إلى المكانة الممتازة التي كانا يحتلّانها في الماضي. فبداية عهد الحماية الفرنسية اقترن بصفة غريبة بانحطاط في مستوى الفنّ والأدب، واعتبر الفنّ مفسدة للأخلاق ومضيعة للوقت فهبّ الكاتب مع ثلّة من المفكّرين والمثقّفين لابراز أهمية المسرح والموسيقى والشعر والرسم، في رقي المجتمعات وهذا الاصلاح من طرف الكاتب لزيغ أثمره تفشّي الجهل في تلك الحقبة من تاريخنا، هو رجوع للأصل.

نطالع في هذا الباب الأخير فصولا نشرت في جريدة «الصواب» ابتداء من سنة 1927، وهي عبارة عن مقالات أو محاضرات ألقاها الكاتب في تلك الفترة في مناسبات ثقافية وضّح فيها المقاييس الجديدة التي يجب اعتبارها لتقييم الانتاج الأدبي والفنّي الذي بدأ يرى النور في تلك السنوات التاريخيّة، سنوات النهضة الفكريّة. ومنها فصل للمحاضرة الرائدة التي ألقاها الأستاذ الهادي العبيدي في سنة 1933 عن «شعر التونسيين وأين وصل» نشرت في جريدة «الزمان» على آمتداد الثلاثة أشهر الأخيرة من نفس السنة.

التمثيل المسرحي وأثره في رقي الأمم

التمثيل وما أدراك ما هو. هو الأستاذ المربي للشعوب والأمم بعد المدرسة يشخص لها الرذيلة والعادات القبيحة في أبشع مظاهرها فتنفر منها وتعدل عنها. ويصور لها الفضيلة في أبهى حلة وأجمل منظر فتتوق لها وتسعى لادراكها. تلك وظيفة التمثيل ولهذا جعل وغيره هواء وعذر!

ومن أجل ذلك فقد اعتنت به البلاد الراقية وجعلته في الصف الأول من عوامل النهوض إذ يكفيها تقويم الأخلاق وتربية الحنكة في الأفراد فأنشأت له الدّور والمدارس وأصبح فنا يدرس ويحرز فيه على الشهادات وقد نبغ فيه أساتذة مبرزون وأسست الفرق والمحلّات كل ذلك لقيمة هذا الفن الجميل وأثره في نهضات الأمم.

وحتى البلاد المتوحشة التي بلغت من الهمجية الذروة ! لم تحرم منه فهذه مدينة فيجي الوحشية الكائنة بشمال أستراليا من قبل أن تستعمرها انقليترا وينبلج فجر المدنيّة في ربوعها كان يجتمع أهلها في الحفلات الدينية ويمثّلون. لا إن لهم مسارح أو دور تمثيل أو روايات مؤلّفة ولكن كانوا يقومون بأدوار صامتة ذات مغاز سامية...

فقبيح بنا والحالة ما علمت ان نحرم من التمثيل ونحن الأمة التي تحاول النهوض ــ ولكنها لم تأخذ بأسبابه الحقّة ــ وتنعشق أن تحيا حياة سامية في ظلال الحرية والانطلاق.

ربّما يقول بعض القرّاء إن لدينا أجواقا وممثلين وليس الأمر كما تقول. ونحن لا نزيد هذا الفريق على أن نسأله : من هم القابضون على أزمة الأجواق والمتعاطون محرفة التمثيل؟ وما هي رواياتهم التي يقدّمونها للشعب في كل موسم أليست من تلك التي لا روح فيها التي تعود على الشبيبة والأمة بالمضرّة بدل النفع لما حوته من سموم تأتي على العقول وتقضي على التربية القومية التي نجاهد بكل قوانا في تكوينها.

الحقيقة التي لا غبار عليها إن ممثلينا قد صبغوا من طينة الكسل فهم لا يريدون أن يتعبوا قرائحهم بحفظ الروايات العصرية التي تمثل آلام الشعوب وتحكي عن عاقبة من يعيد العادات السافلة وحسبهم بعض روايات مملوءة ألحانا وغناء حفظوها منذ نعومة الأظفار فهم يكررونها كل سنة وفي كل موسم...!؟ فقل لي بربّك هل بعد هذا نأمل نهوضا بالفنّ والقوم لا يسمعون ولا يحبون المصلحين؟ أدواؤنا الاجتماعية كثيرة وعاداتنا السوداء لا تحصى وليس بنا من حاجة إلى إقامة الدليل على أننا في فاقة أخلاقية مجحفة قد تقضي علينا.

فلا محيص لنا إذن من أجواق تعيننا على اقتلاع جذور الفساد النابتة بالرؤوس وبث الأخلاق الطاهرة الفضيلة في النّفوس. ولكن هاته الجذور وتلك الأدواء المعضلة لا تقتلع بتمثيل رواية (روميو وجولييت) أو (عائدة) وما شاكلها طالما كانت هذه الروايات خالية من تصوير الأدواء والعادات التي يبصر الشعب بكلتا عينيه بشاعتها فيفر.

وقد حكى لنا بعض من عرفناهم من الأصدقاء الكتّاب أن بعضهم قد ألّف جانبا من الروايات ضمنها آلام الشعب التونسي ونتفا من عاداتنا الضارة وآخر عازم على اقتفاء أثره ولكن نبطهم عدم استعداد الأجواق عندنا لتمثيل تلك الروايات سيما وهي مصممة على أن تبرح البرنامج الذي سطرته من تمثيل الروايات الذي يظل يشاهدها الشخص ويسمع بتكرارها من لدن هو فتى حتى يشيخ ويهرم..!

ليس هذا ما نريد منكم أيها القائمون بأمر التّمثيل في هذه البلاد. إننا نرجو تمثيلا حقيقيًا يجني من ورائه الشعب فائدة هي المطلوبة من التمثيل تنتشله من الفوضى الأخلاقية التي يتخبّط في ديجورها الحالك وتفتكه من بين براثن البدع والعوائد ومخالب الأوبئة الاجتماعية الفتّاكة وبالتالي تمثيلا سداه الحث على التحلّي بالكمالات ومحمته استخراج العبر من التاريخ والسّير وتربية الأخلاق الفاضلة في الناشئة حتى لا يحرم من مشاهدته الفتيان والسيدات. فالروايات في هذا الغرض كثيرة والكتّاب عندنا في استطاعتهم أن يؤلفوا لكم قناطير من هذا القبيل لو كنتم تريدون خدمة الفنّ حقيقة ولكن أنتم تهزءون!..

أما رواياتكم السامة التي تبث في العقول عكس ما يرجى من التمثيل والتي سئمتها النفوس ومجتها الأذواق وقضت بتأخّر التمثيل العربي ببلادنا فليس لكم سوى أن ترموا بها عرض الحائط!

هذه كلمة موجزة نزجيها إلى الأجواق التمثيلية بالبلاد التونسية التي كثرت وتعددت ولم تأت بفائدة وإلى الممثلين بها عسانا لا نرى في المستقبل الروايات الغير مفيدة تمثل فوق المسارح.

أما كلمتنا إلى أولئك الأصدقاء فإنا نحثّهم على مواصلة سيرهم في هذه السبيل الناجحة ونحيي فيهم الأمل بأن يوقظ الله لهذا الفنّ أفرادا من الشبيبة الناهضة المستنيرة فيأخذوا بدفته ويصعدوا به إلى أوج العلى. ونلاحظ لهم أن ينظروا في وضع رواياتهم إلى حالة الوسط الذي هم من أبنائه وما يعتريه من خلل فيصلحوه أو الفساد فيعملوا على انقراضه.

وحبذا لو توفّق فريق منهم إلى إنشاء مجلة تعتني بهذا الفنّ وتنقل كل ما يكتب عنه بالأمم الحية ذات الشأن في المدنيّة والرّقي وسنعود.

جريدة «الصواب» سنة 1927.

مشاكل المسرح التونسي

أيها الاخوان،

أردت أن أبحث معكم مشاكل مسرحنا العربي بتونس. وقد بلغ في التدهور والانحطاط دركة ليس بعدها دركة وزهد فيه من كان يجب أن يهتم به واستولى على حظوظه وتصرّف في توجيهه كما يهواه أبعد الناس عنه وأجهلهم برسالته وغايته.

لقد مضى الزمن الذي كان الناس فيه ينظرون إلى المسرح كوسيلة من وسائل اللهو وتزجية الوقت وسد الفراغ يقصدونه للتسلية والتلهّي والاستمتاع بمحاسن الممثلات... فمسرحنا اليوم شاب له من العمر نحو الثلث قرن. وقد ساهمت الأقلام في الماضي والحاضر في الدعوة إلى تفهّم مراميه البعيدة وغاياته القصيّة ووجوب النظر إليه كمقوّم من مقوّمات النهضة وعنوان من عناوين الارشاد والتهذيب للأمم. وكم أسدى المسرح من خدمات جليلة للشعوب في البلدان الأخرى. ولكن تلك الصرخات التي انبعثت ودوتّ وأتت بأحسن النتائج في بعض العهود ما فتىء المفسدون حتى أخفتوها وحوّلوا المسرح عن وجهته الحقة وساروا به في طريق الشعوذة والتهريج مع ما تؤدّي إليه من قتل الآداب ونشر الأخلاق الفاسدة والمبادي السامة في الاجتماع والأخلاق.

ومشاكل المسرح أيها السادة على نوعين : حديثة وقديمة.

فمن مشاكله الحديثة :

مشكلة العامية والفصحى :

لم يعرف مسرحنا هذه المشكلة في بدء حياته إذ كانت جميع رواياته تمثل بالعربية الفصحى. وكان ما يُقدّم بالعامية يسمّى فصلا مضحكا وفي هذه التسمية أكبر دليل على نظرة الشعب ورجال المسرح نفسه إلى العامية والاعتراف بأنها لا تستطيع أن تكون أداة للتعبير عن المعاني السامية وليست بلغة الأدب التي تكتب بها المسرحيات. هذا كان في عصر لم ينتشر فيه التعليم انتشاره اليوم ولم يبلغ الشعب التونسي المستوى الذي بلغه اليوم من النضج والادراك ومع كل ذلك فقد كانت روايات ذلك العصر ناجحة وتلاقي من الاقبال والتشجيع الشيء الكثير. وكانت الجمعيات يومئذ تتنافس وتتباهى بإخراج المسرحيات العربية الكبرى ويبلغ الحماس بجمهور المتفرّجين إلى حدّ أن ينقسم إلى معسكرين. معسكر يؤيّد هذه الجمعية ويناصرها تأييدا ومناصرة حارّة ومعسكر يؤيّد ويناصر الجمعية الأخرى في اندفاع ينتهي في كثير من الأحيان إلى خصومات عنيفة.

هكذا كانت الحال في عصر المسرح التونسي الأول. فكيف تسربت العامية إلى المسرح وزاحمت الفصحى حتى أطردتها منه واحتلت مكانتها ؟

إن قصة ذلك غريبة أيها الاخوان : لقد استمد مسرحنا التونسي غذاءه الأول من الشرق الذي نشأ به المسرح العربي فترجم كبريات المسرحيات العالمية وألف مسرحيات مقتبسة من التاريخ العربي والاسلامي انتفع بها المسرح التونسي وعاش حينا من الدهر على حساب الانتاج الشرقي. ثم إن هذا الشرق نفسه هو الذي تسرّبت إلى مسرحنا منه المسرحيات العامية الهزيلة المشعوذة وقد روّجها بعض مديري فرقنا التمثيلية فأقبل عليها السذّج لما تحتوي عليه من الأغاني الرخيصة والفكاهة الخشنة والبهلوانية في الحركات والزخرف في الملابس والمناظر. فكانت وافدة من أخطر الوافدات التي أصيب بها الذوق والأدب وتدلّت بالمسرح من عليائه إلى الحضيض. فنفر جمهور المسرح الراقي منها وولّوا وجوههم عن المسرح العربي التونسي بسبب ذلك. وحل محلهم جمهور آخر لا يهمّه من المسرح إلّا الضحك للنكتة الوقحة والتسلّي بالمشاهد الكاراكوزية ثم ظهر عنصر المرأة في

جمهور المسرح فتعقدت المشكلة بذلك وأصبحت الجمعيات التمثيلية التي ابتهجت أوّل الأمر بهذا الابتكار العجيب وعدّته فنّ مستحدثات العصر، أصبحت اليوم بعد الحملات النقدية العنيفة الموجّهة ضدّها وبعد خسارتها لجمهور المثقّفين الغاضبين كلما حاولت إخراج رواية بالفصحى إلّا وأخفقت إخفاقا مشينا حيث أن تشكيلة ممثليها قد انحطّت في فنّها فأصبحت غير قادرة على الاضطلاع بتمثيل الشخصيات الكبرى. وحيث أن الجمهور الذي كونته في رواياتها العامية لا يتذوق الروايات العربية فهو لا يقبل عليها ولا يشجّعها. وبذلك أخذت تحس بعظم الجناية التي ارتكبتها في القضاء على الفنّ المسرحي الراقي.

الموسيقى التونسية

لا أقول جديدا عندما أقول أن الموسيقى أنبل الفنون الجميلة وأسماها لأنها حديث النفس ولغته الطبيعية. والانسان الأول غنّى وترنّم قبل أن يعتني بوضع ألفاظه ويحدد علاقاته مع الغيْر وما زال كذلك. انظروا إلى الطفل الصغير عند وضعه وقبل أن يبتدىء النطق بألفاظ الوسط بماذا يعبر عن عواطفه ورغباته وغضبه وسروره، إنه يستعمل في كل ذلك اللغة الطبيعية، لغة النفس : الموسيقى.

والموسيقى يتأثر لها كل البشر لهذا السبب.

إنما هي في أروبا قد تنوعت وارتقت بين موسيقى الأغاني وموسيقى وصفية تحيط بكل ما يجيش في النفس من هواجس وعواطف مختلفة.

أما الموسيقى التونسية فقد اقتصرت حينا من الدهر على تلحين الأغاني التي تلقى في السهرات، حتى وقعت النهضة الأخيرة، فدخل نوع جديد هو نوع الموسيقى المسرحية التي ابتدعها في تونس الأستاذ محمد التريكي، بتلحينه لروايات : شمشون ودليلة، سلامبو، عبد الرحمان الناصر، وكثير غيرها.

لكن التلحين المسرحي، دائما لا يتعدى المقطوعات الغنائية التي تعتمد على الكلام مع قسط ضئيل من الموسيقى. وبقيت في قلوبنا حسرة مزدوجة : حسرة لتأخرنا بالنسبة لبقية الأقطار فيما يخصّ ميدان التمثيل السينمائي، وحسرة

أخرى في خصوص الموسيقى، الموسيقى التونسية التي ظلّت راكدة جامدة لا تتعدى دائرة ضيّقة هي دائرة الأغاني بينما تغمض عينيها عن النفس البشرية وما فيها من الأسرار وعوالم خفية زاخرة بالعجيب والطريف.

أجل كانت هذه الحسرة المزدوجة تفتّت قلوبنا حتى ظهر شريط مجنون القيروان، فأبدلها بالسرور والاعتزاز فقد شاركنا الأمم الأخرى في ميدان التمثيل السينمائي بشريط لا يخجلنا إذا قدّمناه. وتحققت أمانينا في جانب الموسيقى التونسية التي دخلت ظافرة إلى عالم النفس البشرية فأوجدت لنا الموسيقى الوصفية هي أسمى وأطرف أنواع الموسيقى

وكالعادة فإن الموسيقار محمد التريكي دائما هو بطل التجديد فكما كان الأول في وضع التلحين المسرحي، ها هو اليوم يظهر في طليعة واضعي التلحين السينمائي.

وأريد أن ألاحظ أن شريط مجنون القيروان رغم أنه يعدّ تجربة في ميدان الأشرطة السينمائية بتونس، إلّا أنّه كان موازيا للأشرطة الأروبية الراقية وجاء أحسن من الأشرطة المصرية. ووجود الموسيقى الصامتة في شريط ابتدائي كمجنون القيروان يعد كمالا.

هذه كلمة عرضت لي بمناسبة سماعي لألحان وموسيقى هذا الشريط، أضم لها شكري الفائق للملحّن التونسي محمد التريكي، مأملا منه ومن بقية موسيقيي تونس الاقبال على وضع هذا النوع من الموسيقى التي تشرفنا بين الأمم. فهم نبغاء، ولهم مواهب خصبة دلت عليها هذه التجربة الناجحة.

أسباب شيوع الحزن والبكاء في أغانينا وأشعارنا

يرجع بعضهم أسباب شيوع الحزن في أغانينا وأشعارنا إلى عديد من الأسباب منها أن الجنس السامي والعرب من هذا الجنس يتميز بطبع يميل إلى الشكوى والانسياق نحو المجهول والاستسلام للقدرية. ويقال أن مزامير داود وأناشيد سليمان نلمح فيها هذا اللون الفيّاض بالألم والشكوى. ومن هنا نشأ الغناء في الأمم الاسلامية يحمل هذا الطابع ويصور مشاعر أهلها ويترجم عن صميم ذاتيتهم.

كما أن حياة عدم الاستقرار التي عرفها العرب في نشأتهم الأولى وتعرّضهم دائما إلى الرحيل والبين تاركين ذكريات ورائهم في الأماكن التي يبارحونها كانت عاملا قويّا ظهر في جل الشعر العربي الجاهلي، حيث تفتتح قصائدهم بذكر البين والرحيل.

إذ نتناسيها أسماء، مطلع معلّقة الحارث بن حلزة، وبكاء الديار، وتواصلت هذه إلى ما بعد الجاهلية بقرون حتى أننا لنجد الشريف الرضى يصور هذا المشهد الرائع في قوله :

ولقـــــد مررت على ديارهـــــم
وطلـــولها بيـــد الـــبلى نهبُ
فوقـــفت، حتـــى ضج في الـــغب
نضوي، ولج بعـــذلي الـــركب
وتلفـــتت عينـــي، فمـــذ خفـــيت
عنـــي الطلـــول، تلـــفت القـــلب !

وانطباع الشعر العربي منذ القديم بطابع الحزن والعويل يعود أيضا إلى الوضع الاجتماعي وعلاقة الرجل بالمرأة التي كان يخاطبها من وراء الحجب والأسوار فحرمانه منها مصدر مهم من مصادر اللون القاتم الحزين في آثاره الأدبية، وتعلمون أن التشبيب بالمرأة تحرم الرجل من الزواج بها ولا تنفع في ذلك وساطة ولا قرابة. فهذا الكبت للغريزة عامل قوي من عوامل إشاعة الحزن في نفس الشاعر أو المغنّي حتى ولو كانت حياته محوطة بشتى ألوان البهجة المادية الأخرى، ونجد هذا واضحا بارزا في الشعر الذي قاله أصحابه في مطلع شبابهم.

وحتى عمر بن أبي ربيعة الذي عرف بروحه المرح المستهتر لا يخلو شعره من هذا اللون الأسود، وهو الذي قال :

كتـــبت إلـــيك من بلـــدي
كتـــاب مولّـــه كمـــد
كئيب، واكف العينين بالحسرات منفـرد
يؤرّقه لهيب الشوق بين السحر والكبِد
فيـــمسك قلبـــه بيـــد
ويمسح عينـــه بيـــد

وحيث ان الغناء يعتمد أكثر ما يعتمد على الشعر الوجداني وهذا الشعر تبعته الهزة العنيفة التي تصيب نفس الشاعر من أحداث وكوارث. فمن هنا كان الغناء تجاوبا مع الشعر المذكور.

وكعصور الاستبداد والحكم المطلق والحروب والفتن الدامية واثارها في نفوس الأجيال العربية بما تخلّفه من دمار ويتم ثكل.

نعم قد زالت في العهد الأخير عن الأمة العربية تلك العوامل فنعمت باستقلالها وانتشر فيها العدل السياسي والاجتماعي، ولكن النغمة الحزينة لم تبارح موسيقانا وأغانينا وأشعارنا بل أصبحت طرازا ينسج على منواله حتى اليوم، حتى ولو كانت المقطوعة المغنّاة فرحة بالحياة أو نشيدا حماسيا يستنهض الهمم، فكأن في النفس الشرقية أوتارا لا يملك زمامها إلّا الألم، فيحاول المغنّون والملحّنون الضرب على هذه الأوتار قصد الوصول إلى التأثير بهذه الطريقة الرخيصة السهلة.

الفكـــاهـة

الضحك جزء من حياة الانسان يؤدّي وظيفة روحية وفيسيولوجية، وتأثير الضحك في الصحة لا ينكر، كذلك للفكاهة وظيفة اجتماعية، تسلّي النفوس وتبعث فينا الانتعاش وتقوّم الأخلاق وتجبر الانسان على العمل بتقاليد المجتمعات، المرء يعمل لتنظيم هندامه والاعتدال في مشيته وسلوكه حتى لا يسخر منه الناس.

الأديب الماهر هو الذي يملك القدرة على الفكاهة سواء كان شاعرا أو خطيبا أو كاتبا، قصاصا أو روائيا إذ بتلك الملكة يستطيع الوصول إلى نفوس مستمعيه وفتحها لآرائه من أقرب السبل. وهو ينجح أكثر من الأديب العابس. نلمس هذا في الجدل الصحفي، وفي المناقشات السياسية في البرلمانات وغيرها.

المؤلفون العرب أدركوا هذا في القديم فخلطوا الجد بالهزل والعلم بالفكاهة في مؤلّفاتهم حتى لا يمل القارىء فينفر من القراءة، ابن قتيبة في كتابه «عيون الأخبار» ولم أخل هذا الكتاب من نادرة ظريفة وكلمة معجبة وأخرى مضحكة لأروّح بذلك عن القارىء من كدّ الجدّ وأتعاب الحق فإن الأذن مجاجة، والمزح ان كان حقا أو مقاربا ليس من القبيح ولا من المنكر».

وكذلك الجاحظ الذي سار على هذا المبدأ وكثير من المؤلّفين غيرهما، العرب أكثر الناس تقديرا للفكاهة والأدب العربي أغنى الآداب في هذا الباب،

واللغة العربية غنية بالألفاظ التي تدلّ على الفكاهة : المزاح، الهزل، التندّر، النكتة، التهكّم، السخرية الخ...

الإضحاك فن له أسباب بسيكولوجية ومواضيعه منها ؛ الاشكال المضحكة كالتلاعب بحركات الوجه ومن هذا القبيل التصوير الكاريكاتوري، ومنها تقليد اللهجات، تقليد الحضري للبدوي والعكس والعاقل للمجنون واللهجات الطائفية، ومنه التلاعب بالألفاظ وبالجمل، الجمع بين جمل لا تربطها رابطة، أو إجابة تكون عكس ما ينتظر أو نقل لفظ من معناه إلى معنى آخر مما يفضي إلى صور ذهنية مضحكة،ومنها الأخلاق كشدّة الأنانية والطمع الشديد والبخل.

والشعر العربي فيه باب هو الهجاء وهو يثير الضحك كثيرا وابن الرومي من أشهر من يجيد رسم الصور الكاريكاتورية بشعره لمخلوقات الله، من ذلك قوله يهجو بخيلا إسمه عيسى :

يقتـــــــر عيسى على نفسه ولـيس ببـــاق ولا خالـــــد
فلـــو يستطيــــع لتقـــتيره تنــفس من منخـــر واحـــد

وكتب الجاحظ نوادر المعلمين ونوادر البخلاء.

وشخصية جحا، وأشعار أبي ولامة في بغلته وفي نفسه، وكل الندماء يتحلون بالظرف ومقامات بديع الزمان الهمذاني، المقامة المغربية يصور فيها شخصا يعتز بكل ما يملكه، الثوب الذي يلبسه خير الأثواب، والساعة التي يحملها صنعها المصنع وحدها ولم يصنع مثلها، والبيت الذي يسكنه لا نظير له.

كذلك طريقة تحويل قصائد جدية مشهورة إلى هزلية في موضوع تافه.

الفكاهة من أصعب الفنون وأجملها وهي ضروريّة للانسان تماما مثل الهواء الذي يستنشقه أو الطعام الذي يأكله هي غذاء للروح.

الفكاهة

الضحك جزء من حياة الإنسان يؤدي وظيفة
روحية وفيسيولوجية، وتأثير الضحك في الصحة
لا ينكر. كذلك الفكاهة وظيفة اجتماعية، تسلي
النفوس وتبعث فيها الانتعاش وتقوي الأخلاق
وتجبر الإنسان على العمل بتقاليد المجتمعات، فالمرء
يعمل لتنظيم هندامه والاعتدال في مشيته وسلوكه
حتى لا يسخر منه الناس

الأديب الماهر هو الذي يملك القدرة على الفكاهة.
سواء كان شاعرا أو خطيبا أو كاتبا، وصحافيا أو روائيا
إذ بتلك الملكة يستطيع الوصول إلى نفوس مستمعيه
ومحبيه وقرائه من أقرب السبل. وهو يجمع أكثر
من الأدباء العابسين. نلمس هذا في الجدل
الصحفي، وفي المناقشات السياسية في البرلمانات
وغيرها

إن شعراء العرب أدركوا هذا من قديم
فخلطوا الجد بالهزل والعلم بالفكاهة في مجالسهم
١٤٥

جزء من مقال «الفكاهة» مكتوب بخط يد المرحوم الهادي العبيدي

شعر التونسيين وإلى أين وصل

تمهيد

أخواني شباب تونس الناهض

عصرنا الحاضر بالنسبة لنا عصر تمخض وانقلاب أو هو عصر إنتباه وتحد لماضينا القريب والبعيد، فجميعنا يشعر بفساد الحياة التي ألفناها والوضعية التي نسكن بها طلية هذا الزمن المديد ويود التخلص منها إلى حياة جديدة ووضعية تناسب شعبا يعيش في القرن العشرين ويعاصر أمما عتيدة بلغت في المدنية والرقي مبلغا لم يحكه التاريخ.

وهذا الظهور الذي تجتازه الأمم في حياتها تصحبه ظاهرات وأعراض عديدة أجلاها ما يبدو في أدبياتها التي تستمد منها غذاءها الرّوحي وبرنامجها الجديد من تطور وألوان لم تعهدها من قبل، وما يقوم به الأدباء من تمحيص الماضي وتعيين الاتجاهات التي تفرضها النهضة وتتطلبها الأيام. وإجابة لصوت هذه الاعراض اعتزمت القيام بهذه المسامرة وأردت بها كشف الغطاء عن قسم مهم من الأدب له التأثير البعيد المدى في نهضة الشعوب وتقلّباتها، معرفا للتاريخ تطوراته والآفاق الّتي ماتزال مغلقة أمامه وما أعتوره من تحوير وتجديد وما بقي عالقا به في تشبث بآثار العصور البالية ومقدار تأثيره بآداب الأمم المجاورة وهذا القسم هو الشعر.

ذلك ما آعتزمت أن أبحث عنه وفي نفسي شيء غير يسير من الاستصغار لهذا البحث والثقة بايفاء بذلك في غير مشقة ولا كبير عناء.

لكني ما كدت أشرع في تنفيذ البرنامج الذي سطرته حتّى وجدت الأمر يعكس ما أتصوره إذ من العبث أن يلم الإنسان بدراسة كهذه في مسامرات فضلا عن مسامرة واحدة له تستغرق ساعة من الزمن.

وإذن فقد اكتفيت بوضع اصبعي على نقط الموضوع وضعا خفيفا وكتبت عنها ما يشبه. رؤوس أقلام بالنسبة لما كنت أنويه من دراسة عميقة على أحدث أساليب الدرس فاذا فاتني التحليل والتمحيص في هذه المسامرة لم تفتني على الأقل الاحاطة بمواضع هذا التحليل بهذا، فأنا أرجو غض النظر عما عسى أن يلوح لكم من تقصير فتشعّب الموضوع واتساع نطاقه من جهة وحداثة عهدي بالسهر شفيعان لي عندكم على ذلك.

على أني أريد أن أكون صريحا في البحث إلى حد الامكان. فأنا لا أقيم لقدسية الأباء وزنا هنا، ولا أرى لعلاقاتي الودية مع أصدقائي الشعراء أثرا في هذا المقام وأنا أحبّ أن أخرق هذا الجو من التقدير المبهم الذي يحيط بآثار أبائنا وشعاري أن أقول للأعور في عينه يا أعور وأشد على يد المجيد في حرارة واعجاب.

فقد كفانا عبادة للماضي ورجاله بدون وجه معقول وكفانا ابتساما وتحبيذا لآثار الأصدقاء بدعوى التنشيط والتشجيع وما كان التمدح بمجد الأباء بهذه الطريقة إلّا مبعثا للتواكل والخمول وما كان تشجيع الخطل الا تضليلا وتغريرا بمن يقعون فيه ومساعدة مجرمة لترويج الأخطار التي تسوّد وجوهنا وتحط من قيمتنا في نظر العالم ونظر التاريخ.

وإن حُلِلَ الماضي البرّاقة التي نتشبث في التزيّن بها ـــ هذا الماضي الذي أصبحنا ضحاياه لم تعد غير أكفان تجرنا إلى القبور والاضمحلال وخير للمريض أن يحسّ آلام مشارط الجراح ساعة ثمّ يزول الألم أبدا من أن يلتذ بالمخدرات والمسكنات لحظات قصيرة والألم ينخر هيكله حتّى يسلّمه إلى براثن الفناء.

بهذا الرّوح أتناول بالبحث شعر التونسيين وإلى أين وصل.

الشعـــر بالأمـــس

إذا قلنا أن آثار الشعراء التونسيين في القرنين الثاني عشر والثالث عشر وأردنا أن نتفهم روح هذا الشعر وقيمته وجدناه لا يخرج عن العبث والتسلية الشخصية ولا يتعدى درجة الشعر في عصور الانحطاط التي أصابت الممالك العربية. وشعراء ذلك العصر لا يفهمون من الشعر الّا ما قرره الخليل بن أحمد من أنّه كلام مقفي موزون. أمّا مواضيعه في المديح وحرق البخور أمام أعتاب المتنفذين وذوي السلطات وتهاني الأصدقاء بافراحهم وبما يحرزون عليه من مناصب أو يغدقه عليهم الأمراء من نعمة أو وصف الغلال والمأكولات. فأنت عندما تتصفح ديوان أحدهم لا يطالعك فيه إلّا وقال : يمدح الأمير فلان وقال يهني الأمير فلان بتنقله من قصر كذا إلى قصر كذا. وقال يهني الشيخ فلان بزفاف ابنه وقال في القسطل المشوي والليمون الآخر..الخ...

وما أظنّ أنّ هذه المواضيع وهذا الكلام قبل فيها مما يصح أن ينسب للشعراء أو توجيه عاطفة صادقة وعندي أن الدافع للمتقدمين على قرض الشعر إنّما التقليد وتطبيق قواعد العروض الّتي درسوها وما في الشعر من عذوبة الترنيمة فهم يرغبون به عن النثر في المواقف بتقدّمة من مديح وهناء ورثاء لذلك وحبا فيما يسمى — فانتيزي —

والمشتغل بالأدب في عرف ذلك العصر ينسب العبث والبطالة وحتّى إلى حطة الشرف ودليلنا على هذه النظرة الخاطئة ما جاد في قصيدة للشيخ بيرم الرابع

يوصي ابنه حيث يقول :

ان الزّمان الذي تفنيه في الأدب *** يراه أهل النهي من جملة اللعب
فاصرفه في شرف ترجو عواقبه *** الخ...

ومن هذه الأبيات ترى أن أهل ذلك العصر يرون الاشتغال بالأدب عبثا وضربا من اللعب وليست هذه نظرة عامة النّاس بلا أهل النهي منهم. ثمّ ترى كيف ينصح الشاعر ابنه عن صف وقته في الأدب بقوله : فاصرفه في شرف. وإذن فالأديب ليس لعبا فقط بل هو منتقص الكرامة مثلوم الشرف في عرف هؤلاء النّاس.

ومتى أردنا التعبير على شعر هذا العصر أو هذا النوع من الشعر بآسم يُترجم عن حقيقته وقيمته لا نجد أحسن من نعته بشعر المناسبات والرسميات. وأكبر ميزة له الإغراق في الصناعة والمحسنات اللفظية إلى درجة معجبة فقد تفننوا في هذا الضرب تفننا غريبا وزعيمهم في نظري هو المرحوم الشيخ محمود قابادو. وعلى أننا إذا عرفنا أن الشعراء يومئذ هم طبقة الفقهاء والشيوخ علمنا سر هذا الاحتشام والتحفظ وهذا الجفاف الذي يبدو على شعر ذلك العصر فهذه الطبقة تعيش دائما في سياج سميك من التقاليد فالآداب العرفية تحول بينها وبين الاندفاع مع تيارات النفس والعواطف ثمّ ما عرفت به هذه الطائفة ما حبّ الانكماش والعزلة الذي يجعلها لا تتصل بالوسط والحركات العامّة حرمها من أوسع أفاق الشعر الحي.

وإذا عرفنا إلى جانب ذلك انعدام مقاييس النقد الصحية يومئذ وتأثر طائفة المتأدبين بابن رشيق وكتابه «العمدة» الذي يعدونه أحسن كتاب في علم الأدب ونقد الشعر وعرفنا مقاييس هذا الناقد ونظرته للشعر أدركنا قرائح صدر ذلك الشعر المغزول.

فآبن رشيق يفهم الشعر ووظيفة الشعر بهذا الروح حيث يقول :

الشعر شيء حسن *** ليس به من حرج.
أقل ما فيه ذهاب الغم عن نفس الشجي

ثم يقول في تعريف الشاعر ! «واحمق الشعراء عندي من أدخل نفسه في هذا الباب (يعني السياسة) أو تعرض له وما للشاعر والتعرض للحتوف. إنما هو طالب فضل فلم يضيع رأس ماله !» واثر هذه الحدود والمقاييس جلي في شعر التونسيين في القرن الثاني والثالث عشر فالشعر مهمته ذهاب الغم عن قلب الشجي وهذا معنى التسلية الشخصية. والشاعر يعد أحمق إذا دخل في باب السياسة وذلك سر انكماش شعراء ذلك العصر عن تصوير مجتمعاتهم والشاعر انما هو طالب فضل ومعناه التمرغ على الأعتاب والهتاف للمتسيطرين.

ذلك هو الشاعر يومئذ بدون أن نتكلّف أو نتمحل أو نعمد إلى تخريجات اللغويين وإفهام النحويين لننسب لهؤلاء الشعراء إنشاد الشعر الحي.

ولكن هل وقف الشعر التونسي في هذا المنهج طيلة هذين القرنين ؟

كلا. ففي أواخر القرن الثالث عشر أخذ الشعر يتطوّر في حركات بطيئة. فخرج الفقهاء عن سياج التقاليد العرفية بعض الخروج فقرضوا الشعر تحت تأثير عواطفهم البشرية وأنشدوا الغزل الذي يوحي الاعجاب بالجمال والاحساس بعاطفة الحبّ لا الغزل الذي يتخذ مطية لقصائد المدح فنجد للعلامة المرحوم سالم بوحاجب مقطوعا غزليا رقيقا أنشده في إيطاليا وأثبته المرحوم الشيخ محمد السنوسي في كتابه : «الرحلة الحجازية» وهذا المقطوع أنشده الشيخ سالم في فتاتين إيطاليتين فقال :

يا نار وجد بوسط القلب شباك ريمان قد قيدا طرفي بشباك
حملت ما لا يطيق الدهر بحمله ولا تعوده من سير أفلاك
شمسٌ وبدر على تعذيبي آجتمعا كلتاهما دون كسر ذات أملاك
....

وهكذا أخذ الشعر يتدرج نحو النور إلى أن جاء القرن الرابع عشر فظهر شعراء اليوم الذين قاموا بثورة كبرى في الشعر التونسي غيرت كثيرا من معالمه وطقوسه.

الشعر في القرن الرّابع عشر

لم يعد الشاعر يقرض الشعر إجابة لصوت الرسميات فقط ولا لوصف المأكولات والتسلية الشخصية ولم يعد الشعر منحصرا في طبقة الشيوخ والفقهاء فقد شارك فيه أبناء المدارس وغيرهم ممن لم يتناولوا تعليمهم بين عرصات جامع الزيتونة ولا بلغوا درجة الافتاء أو القضاء. فتحرر من قيود التحفظ والانكماش القديمة وأخذت ملكة الابتكار والاشتراع تظهر في آثار الشعراء التونسيين وكان للحرب الكبرى والانتباه الذي أحدثته في أمم العالم أثر كبير في صبغة الشعر وتجدد مواضيعه وروحه. فطرق شعراؤنا أبواب الاجتماع والسياسة وضربوا بسهم في الشعر الوجداني وشاركوا في قيادة الحركات الاصلاحية وأعربوا عن أماني الشعب ورغباته واستفزوه للنهوض والحياة وحاولوا التخلص من قيود الصناعة والتزييف اللفضي بل أعلنوا الثورة على مقررات الخليل بن أحمد ولم يقفوا عند حدود موازينه وتفعيلاته وأدخلوا في آثارهم أنواعا جديدة من الأدب الحي لم يألفها الشعر العربي.

الأنــواع الحــديثــة

أول شاعر جدد في الشعر التونسي وافلت من احترازات الماضي هو الاستاذ خزندار فقد أتى بنوع غير مألوف هو هذا الشعر الذي نسميه بالشعر الشعبي الذي يغذي به روح الشعب في حركته الوطنية ويزرع في نفسه الأمل في حماس وآعتداد. وهو يمدح ويرثي ولكن أسلوبه أسمى ممن تقدمه فإذا رأيناه يمدح الأمير الراحل محمد الناصر فليس لأن هذا أمير ولا لأن الرسميات تقتض ذلك فعلاقة الشاعر بهذا الامير تكاد تكون علاقة صداقة ولأنه كان يعلق عليه آمالا كبارا لصالح أمته سيما بعد وقوف هذا الأمير موقفه المعروف يوم 5 أفريل وقول الشاعر في مرثية الأمير أكبر شاهد على ذلك وهو إذا رثى لا يعمد إلى الشمس فيوقفها عن سيرها ولا يدك الجبال الرّاسية ويوقف تيار الحياة لأجل فقده حسبما ألفه المتقدّمون وشعراء التهويش وهو أمر لم يقع لموت خير المرسلين محمد بن عبد الله (ﷺ) وإنما يتخذ الموت موضوعا للوعظ وتنبيه الغافلين والتأمل في هذه الحياة التي تغرينا بتبرجها الكاذب معلنا حزنه ووحشته لفقدان الصديق ومشيدا لخصاله وشيمه التي عرفها الناس عنه.

وهناك اثر آخر للتجديد في شعر الاستاذ خزندار وهو اللغة بعبارات فخمة وأسلوب عربي جزل لا يمجه قحطان ولا يستغربه التونسي المثقف فلا يلتزم البديع ولا الشعوذة اللفظية.

ثمّ جاء الأستاذ آغة وهو شاعر أبعد مدى في تجديده من زميله خزندار فشعره لا يرتكز على العاطفة والحماس كزميله. ولكنه يظم إلى الخيال والعاطفة والعقل والتفكير وهو يهتم بالمواضيع الاجتماعية والاخلاقية والبحث الفلسفي أحيانا وشاعرنا هذا فتح فتحا جديدا في الشعر التونسي إذ جاءنا بنوع حديث ذلك هو شعر الاقصوصة.

وهذا النوع من شعر الأستاذ آغا وان لم يرتكز على أصول فنية اذ أنه في الغرب فن قائم بذاته على أصوله ومقاييسه وحدوده الفنيّة وأدباؤه المختصون إلّا أنّه اجاد فيه وابدع ومن يقرأ قصائد «هندواليس» و«حياة البغي». يدرك قيمة هذا الضرب من الأدب واثره في خدمة الأفكار وكشف المساوي النفسية والنظامات الاجتماعية الّتي تنخر هيكلنا.

وقد نظّم الأستاذ آغة في نوع آخر : هو ما يسمى بشعر الحوار أو المراجعة أو ما يشبه المونولوجْ عند الافرنج. وهذا ان عرفه الأدب العربي على طريق شعراء الأندلس إلّا أنّه قليل وبودنا لو زادنا منه الأستاذ آغا ونظم فيه شعراؤنا إذ هو قسم مهم في الشعر الغنائي وقصيد الاستاذ الذي عنوانه «قلت وقالت»، من ألطَف ما نظّم في هذا الباب وعلى ذكر شعر الأقصوصة ألاحظ أن هذا النوع قد شاع بين بعض شعرائنا. فقد نظّم الأستاذ سعيد أبوبكر وأتى فيه بمقطوعات بديعة ولكنّها قليلة وعرف سعيد بنوع آخر لم يُجار فيه. هو نوع الشعر السياسي القومي الذي يتناول الحادثة من سياسية أو اجتماعية فيسجلها بأسلوب لم نعرفه لغيره.

ولهذا الشعر عندي قيمة كبرى من عدة وجوه. فشعر سعيد هو الشعر الوحيد الذي يصحّ أن نطلق عليه آسم الشعر القومي وإذا وضعته بين آثار شعراء العالم إمتاز وتفرّد بتونسيته البارزة. وفي الحقيقة فسعيد يحتل مكانة عظمى في تاريخ الشعر التونسي إذ هو أول من أعلن ثورة التجديد الشعري في شمال إفريقيا إذ جدد في مواضيعه وجدد في أساليبه وتراكيبه وجدد في أوزانه وقوافيه مجتاحا لمقررات الماضي بأنواعها وقصيدته (جمعية الرفق بالحوان) وقصيدة (الحياة أماني) دليل ضئيل لتجْديده الواسع.

لكن سعيد لم يكد يطبع الجزء الأول من ديوانه ويشفعه بزهراته وهي أثر ذو قيمة كبرى كم كان محزنا أن يطبع على الصورة التي ظهر بها وهو مجموعة تاريخ أدب وفن. وكم كان بودنا أن يُطبع بأحدث الأساليب الّتي انتهت إليها الطباعة والنشر مذيلا بالتعاليق والمقدمات والفهارس حتّى لا يعسر فهمه مع الأيام ويصبح ألغازا ينسيان الظروف التي قيلت فيها تلك الزهرات والتي لا يعرفها إلا أبناء اليوم. أقول إن سعيدا بعد ذلك ـــ وللأسف ـــ قد سكت وحرم الشعر من بلبل شجي طالما غنّى من قبل فسحر وروّح عن النفوس المكلومة.

ثمّ أظهر نوع اخر في الشعر التونسي وهو الشعر الغنائي ـــ ليريك ـــ وزعيم هذا النوع هو الأخ عبد الرزاق كرباكة فغزواته كلّها من هذا النوع البديع وأنت عندما تقرأ له : «قيتارتي» أو «كان زمان يا حسرة» أو «إليها» وغيرها من المقاطع العذبة التي كان ينشرها في صحيفة الوزير تتذوق نغمة شجية لم تألفها في غزل بقية الشعراء.

وكرباكة يتمتع بحيوية غريبة تراها في حركاته وحديثه كما تلمحها بادية في شعره كما يبدو عليه اثر المراجعة والتهذيب في أسلوبه جدة وطرافة تجعله أقرب للخطابة منه للشعر ولعل سر ذلك يرجع للمسرح الذي مارسه الصديق فاثر فيه وتأثر به. فهو يسترعي انتباهك ويفاجئك ويستثير حسك في لباقة وبراعة سيما اذا سمعت قصائده بما فيها وما يصبغه عليها القاؤه الفريد من حياة وروح مضطرمة.

وهذه الحساسية الدقيقة في كرباكة قد أثرت في شعره تأثيرا كبيرا حتّى انك لو تقرأ القصيدة الذي ودع بها وفد الطلاب التونسيين لفرنسا وأنت لا تعرف الرجل شخصيا لا وهمك أنّ الشاعر عاش في الوسط الباريسي حقبة مديدة من الزمن مكنته من دراسته وتفهمه وتصويره بهذا التصوير البليغ وأني لأسرد على مسامع الشباب :

في دمـــام اللّـــه سيروا ظافريـــن نشأة العلـــــم وخير المرسلين...

وقصيدته مراجعة معروف الرصافي عندما خرج مغاضبا من العراق للصحراء درة فريدة. وقد يستغرب السامع إذا قلت أن أغلب شعر كرباكة في

الرثى فقد رثى المويلحي ورثى جبران خليل ورثى حافظ ابراهيم ورثى شوقي وغيرهم.

ولكن ما هي طريقة كرباكة في الرثاء ؟ هل هي من ذلك النوع القديم الذي يرتكز على المبالغة والتهويل الكاذب. أم من النوع الذي ظهر بعده كنوع خزندار الذي يقف الشاعر فيه موقف الواعظ المعتبر ؟ كلا لا هذه ولا تلك.

فكرباكة قد ابتكر لنفسه طريقة تفرد بها وأمواته كلّهم من زعماء يتخذ من الموت موضوعا للنظر في حال هذا الشرق الراكد المثخن بجراحات الجهل والجمود والانقسامات فيحللها ويتألم منها ويتفجع من الدهر الذي لا يرحم هذا الشرق المسكين فينكبه كل يوم في قائد من قواده وزعيم من أبنائه المنكوبين :

والآن دعوني أحدثكم عن نابغ قد ارتقى بالشعر إلى درجة الفن الخالص واستقى مواضيعه من نبع القلب فجعله مناجاة الروح وتقلبات النظر على حقائق هذا الوجود وجمال الطبيعة الساحرة وشوق النفس الطموحة المتطلعة باستكناه ما وراء المجهول.

ذلكم هو الفنان التونسي الأخ أبو القاسم الشابي الذي مزج شعره بالفلسفة ونحا فيه نحو الفن والوجدان وجدد شكل الشعر بما ابتدعه من الأوزان الجديدة الوسيمة أكثر مما استعمله السيد سعيد أبو بكر.

وشاعرنا هذا من أصحاب المذهب الرمزي فألفاظه جديدة في معانيها بالنسبة للقاموس وإذا قرأت شعره أحسست بمعان وتصورات مبتكرة ونغمة غريبة لم تألفها في الشعر العربي — والشابي خصب الخيال عميق العاطفة يقظ الذهن ومن يطالع آثاره ولا يعرفه شخصيا لا يتردد لحظة في الجزم بأن الشاعر مطلع على الآداب الغربية وهو على الأقل يحسن لغة من اللغات الأجنبية.

أما الحقيقة فهي أن الشاعر لا يحسن غير العربية ولم يتلق تعليمه الّا بين عرصات جامع الزيتونة وعلى شيوخه ومدرسيه المعروفين. ولم يطلع على الآداب الغربية الا من خلال المقطوعات والآثار القليلة التي ينقلها أدباء الشرق للعربية.

وعلى أن الشابي قد أضاف إلى هذا الانقلاب الذي احدثه انقلابا آخر

حيث أدخل في الشعر التونسي نوعا جديدا هو الشعر المنثور أو المرسل وأنشأ فيه مقطوعات فنية جميلة وكتابه الخيال الشعري عند العرب تحفة فنية رائعة لم يعرفها النثر في سالف عصوره.

ظهر الشابي بفنه المبتكر فأحس المحافظون بتحرج مراكزهم وكساد بضاعتهم إذا انتشر هذا النوع الغريب، فأخذوا يصادرون الرجل وينتقصونه ويتقعرون على أسلوبه بل عمدوا إلى أكثر من ذلك فطعنوا عليه في عقيدته وإيمانه تنفيرا للنّاس من الاقبال على بضاعته والتأثر بمذهبه فأحرج هذا السلوك شاعرنا خصوصا وهو ليس جبارا ولا جلدا بل مسالم رقيق الحسّ فأنشد قصيدته «النبي المجهول» التي جاءت آية في الروعة والعمق وأحب أن أنقل بعضا منها حتى نتفهّم نفسية الشابي وروحه ودقة إحساسه قال :

أيها الشعب ليتني كنت حطّابا   فأهـــو على الجذوع بفـــــأسي
ليتني كنت كالسيول إذا سالت   تهد القبــــــور رمسا برمس...

وهكذا لم تعرف قيمة الشابي فسخرنا منه واذيناه لخبث عريق في نفوسنا وحسدٍ يقضم ضلوعنا لكل عبقري يظهر في البلاد وبقي الشابي بعد ذلك ينشر بين الفترة والفترة مقطوعا من نفثاته يهتز له الشباب الذي كره القديم لكذبه وتزييفه بقدر ما يخنق المحافظون إلى أن هب جماعة الأدب من شبان مصر فاسسوا جمعية «أبولو» لخدمة أدبهم ونشر مذاهبهم الجديدة ونشروا مجلتها تنفيذا لذلك الغرض حتّى رأى الشابي في ذلك الوسط وهذه المجلة مسرحا ملائما لاذاعة مباديه وعرض خطراته فبعث للجماعة بعينات من شعره قابلوها بالاعجاب والاكبار وأحلوها في المقام الأسمى مستزيدون صاحبها من هذا الوحي المسكر ومعلنين اكبارهم لشاعرنا في غير ما مرة وغير مكان.

وهكذا يلحق تونس وأدباءها فخر عظيم وسمعة طيّبة عن طريق رجل نبذه وطارده أدباؤها.

وأخيرا يظهر في الشعر التونسي نوع طريف بالنسبة له وحديث عهد أيضا بالأدب العربي في غير تونس من الأقطار العربية ذلك هو شعر التمثيل.

واذا سررنا بهذا النوع فسرورنا مزدوج. هو يسرنا من جهة أخرى لأنه يخرج بالشعر عن مناهجه المألوفة وأبوابه المملولة إلى أفق جديدا حي — تسرنا من جهة أخرى هذه الثروة التي سيحرز عليها مسرحنا المحلي الفقير والمنحط بسبب أفعال الأدباء له وقعودهم عن تزويده واغنائه عن الاستعارة عن أدب الغير الذي لا يفيدنا ولا تنطبق بحوثه وأغراضه على بيئتنا أو تصور مساوينا وزعيم هذا النوع شاب من شباب الشعراء التونسيين هو الأديب السيد جلال الدين النقاش — وقد سيتغرب الباحث صدور هذا العمل من شاب زيتوني كالسيد جلال الدين لا يحسن لغة أجنبية ولا اتصال له بآداب الأمم الأخرى الا عن طريق النتف التي تظهر في الصحافة الشرقية وهي لا تؤدي إلى هذه الدرجة كما لا يبلغ إليها التعليم بجامع الزيتونة. ولكن الغرابة تنتهي اذا علمنا أن شباب الزيتونة في السنين الأخيرة لم يبق مقتصرا على تثقيف الجامع الغث بل اعتمد على مجهوده الفردي ومطالعته الخارجية التي اكتسب منها ثقافته الحيوية واستنجد ذكاءه وما يكمن فيه من ينبوع دفين بما حوله أن يكون العماد في الحركات الأدبية والاجتماعية اذا ذكرنا تلاميذة المدارس فرع مبتور عن الثقافة العربية ثمّ ان اتصال الصديق جلال الدين بالمسرح وعمله فيه مدة من الزمن — ككثير من أدباء الشباب. حوله تفهم أسراره وكانت كافية لاقناعه بما يتخبط فيه المسرح التونسي من فقر وتقهقر من الناحية الأدبية. فاندفع تحت هذا التأثير لوضع روايته «سقوط قرطاجنة» الشعرية سدا لذلك الفراغ وتشريعا لبقية زملائه الشعراء حتّى ينسجوا على منواله ويقتفوا خطواته. وأنا أبارك هذا الروح وأهتف له.

والآن وقد سجلنا تطورات الشعر في تونس درجة درجة وأخرجنا الأنواع الحديثة التي دخلته وزعماء هذا التطور وتعرضنا لأدب هؤلاء الزعماء بملاحظات موجزة التي دخلته وزعماء هذا التطور ومبلغه من الكمال والدرجات التي تنقص الشعر التونسي للوصول لهذا الكمال المنشود. أريد أن أحدثكم عن :

الخيــال فــي الشعــر التــونســي

ولا أقصد من قولي الخيال خيال المجازات والاستعارات ولا هذا التلاعب بالألفاظ وطريقة جمعها ونشرها واضافتها فنحن اليوم نعيش في عصر المكر وسكوب والتلسكوب التي تنفذ إلى أعماق الأعماق وتستطلع الدقائق وقد زال بفضلها عن أعيننا التي لا تنظر إلّا السطحيات ويغريها البريق الخاطف. فخيال المجاز والاستعارة وما إليها من العبث اللفظي ليس إلّا خيال صناعي يشبه السراب.

دائما يهمنا هذا الخيال الفني العميق الذي يمزق الحجب وينظر ما وراء الماديات فهل وجد هذا النوع في الشعر التونسي ؟

إذا تتبعنا آثار شعارئنا بامعان وحافظنا على معنى كلمة ـــ الخيال ـــ التي نقصدها بحدودها الدقيقة لا نجده. وهو وان بدأ شعر البعض إلا أنه لازال طفلا ضعيفا يتعثر في خطواته ولم ينضج بعد ثمّ لنبحث عن المثل الأعلى في الشعر التونسي وبدون كبير عناء نجد الشاعر التونسي لا يفهم هذا المعنى. فهل لهذا من أسباب ؟ أجل فأنا أرى لذلك أسبابا وأعتقد أن لها أثرا بعيدا في ركود الشعر بتونس وعدم بلوغه لدرجة السحر.

الثقافة :

من أهم هذه الأسباب انعدام الثقافة في الشعراء التونسيين فجل شعرائنا من خريجي جامع الزيتونة. وليس من شأن هذه المعلومات ولا الأسلوب الذي تلقى به أن يفتق الذهن أو يغذي العقل ويوسع دائرته سيما والعلوم الحيّة مفقودة من برنامج هذا التعليم وكل شعرائنا لا يحسنون غير العربية فهم بذلك لا يعرفون ولا يتغذون من غير الأدب العربي. والأدب العربي أصبح غير كاف لتكوين الأديب بالمعنى الحديث فنتج عن ذلك أن عمد أدباؤنا إلى الغذاء من الأدب العربي القديم يلوكونه ويخرجونه في أشكال متغايرة وان كان في لحيمه لم يتحول وعمدت جماعة أخرى منهم للغذاء من نفسها وهي لا تفوت الأولى في اخفاقها عن الوصول لما ينبغي إذ أن كل شيء يتغذى من نفسه لا ينتج الا ضعفا ثمّ موتا في النهاية.

أثر الأدب الغربي :

إذا أردنا أن نبحث عن أثار هذا الأدب في الشعر التونسي فلم يظهر بين الشعراء إلا فرد واحد يحسن اللغة الفرنسية فامكنه أن يترجم للشعر التونسي عدة مقطوعات لأكابر أدباء فرنسا وهو السيد سعيد الخلصي نزيل المغرب الأقصى اليوم. فنحن نعرف له ترجمة شعرية لبحيرة لامارتين وفق فيها توفيقا لم نره لأديب شرقي ممن ترجموها بعده وله قطعة ثانية نشرت في المجلة الصادقية ترجم بها قصيدة لفيكتور هيقو يخاطب فيها ابنته واصفا حالتها إذ كانت في المهد ومقابلا بها نفسه إذ كانت في اللحد.

وقصيدته في رثاء الممثلة حبيبة مسيكة ويعرفها جل الأدباء غاية في الابداع تلحظ فيها هذه الرقة التي امتاز بها الأدب الفرنسي. فانعدام الذين يجمعون ثقافتين وهم الذين يمكنهم تطوير الشعر في تونس بما ينقلونه من كنوز الآداب الغربية وما يهضمونه من هذه الآداب ويظهر في نتاجهم من الأسباب التي قعدت بالشعر التونسي في منتصف الطريق وأبقته مرتكزا على روح التقليد الذي يظهر جليا للباحث رغم ما يتقمص فيه من أشكال جديدة وأساليب متغايرة.

النــقـــد :

وهذا سبب آخر له أثر كبير فعدم وجود النقد في تونس، هذا الذي يمحص ويحلل ويظهر السيئات والحسنات ويضع المقاييس الصحيحة. وترك الشعراء ينتجون كما شاءت لهم الصدف. أو ظهور بعض النقاد أحيانا بمقاييس لم تعرف وإنما اخترعت للتهجم والاستنقاص كل ذلك عاد بالوبال على سير الشعر التونسي نحو الكمال.

أثــر المـــرأة :

ثمّ هذه أيضا عقبة كأداء في طريق الشعر فاختفاء المرأة من هذا الموضوع قد جعل الشعر فج العاطفة مجد بها لم يصهر قريحته جمال ولا عرف قلبه الحبّ حقا وان تحدث عنه بلغة من سبقه. وتونس لم ترزق شاعرات من عصورها الأخيرة ولم توجد عندنا صالونات الأدب التي تشرف عليها المرأة كصالون المرحومة الأميرة نازلي هانم الذي كان يضم أقطاب مصر في الأدب والعلم والاجتماع والسياسة أمثال الشيخ محمد عبدة وقاسم أمين وسعد زغلول وحافظ وغيرهم.

نصيب الصحافة في الأدب :

ولست أنسى أن الصحافة التونسية لها يد في هذا التأخير. فهي لم تخصص للأدب عناية تذكر بالنسبة لعنايتها بالتلغرافات العمومية والأخبار العالمية. نعم ان بعض الصحف تنشر من حين لآخر بعض مقطوعات أدبية وأبحاث لا تكاد تذكر في النقد ويظهر أن قسطا من ذلك يحمل على عاتق الشعب فهو لم يشجع الصحافة الأدبية تشجيعا كافيا حمل ذلك بعض الأدباء على الالتجاء إلى الصحافة المصرية. وهذا الأخ الشابي لو لا كتاب السيد زين العابدين السنوسي صفحات

مختارة من الأدب التونسي في القرن الرابع عشر لما تعرفنا إلى هذا الشاعر وللشابي شعر كبير ما أظنه نظمه عند صدور الكتاب بل هو في زمن قديم. ولكننا لم نعرفه لأن الصديق لم يجد مجالا للأدب في الصحف التونسية. ولنا أمل فيما سينشأ من الصحف التونسية لخدمة الأدب واحاطته بجانب من عنايتها.

شعـــراؤنـــا والشعـــر الملحـــون :

نحن نعرف كثيرا من شعراء هذا النوع الشعبي وهو نوع احترمه فهو يتمشى مع النفسية التونسية جنبا لجنب مادام يصدر عنها ويصور طبقات الشعب تصويرا بريشة رسام بارع ويعرف من رغائبهم وآمالهم في صدق ولا نجده في الشعر التونسي الفصيح ولست أريد أن أحدثكم عن شقرون وابن موسى والكافي وغيرهم من شعراء هذا النوع ولكن أريد أن أحدثكم عن الأستاذين خزندار وآغة فلهذين الشاعرين مقطوعات كثيرة من هذا النوع يعرفها الكثيرون من الأدباء. ولكن شعر خزندار تلوح عليه في هذا الباب البداوة في ألفاظه وخياله بينما شعر اغة تبدو عليه الحضارة وخيال الطبقات البلدية. ولست أدري سر اخفائهم هذا النوع من أدبهم عن النشر فهم لا يظهرونه الا للأصدقاء. هل يستنكفون عن ذلك ويترفعون عن أن ينسب لهم أدب العامية ؟

فما يقولون في شوقي اذن وهو معتبر أمير شعراء العربية عندما ينظم الأغاني لعبد الوهاب من هذا النوع ؟ في الحقيقة أن الاستاذ آغة قد أخفى علينا غيم شعره فنحن عندما تحدثنا عن الأنواع الحديثة التي دخلت في الشعر التونسي ذكرنا من بينها شعر الأقصوصة الذي ابتكره الأستاذ آغة ومفهوم أن هناك نوعا ثانيا هو شعر القصة الكبيرة أو الحادثة فهل هذا النوع لم يوجد في الشعر التونسي.

إذا نظرنا إلى ما هو منشور من أدب التونسيين لا نلقى له أثرا. أما اذا دخلنا إلى مكاتب الأدباء وخزائنهم ففتشناها وجدنا هذا لم يغفله شعراؤنا، ووجدنا

الاستاذ خزندار هو مبتكر هذا النوع وله فيه قصة تحوي 700 بيت. وإذا حدثته في نشرها أجابك باعتذارات لا أدرك لها معنى معقولا.

إلى هنا انتهى بنا البحث عن الشعر التونسي إلى أين وصل وبقي علينا أن نتقدم بكلمة إلى شعرائنا : لقد مضى على نهضة الشعر التي سردناها نصف قرن أو يزيد وأصبحت تلك الأدوار التي تقلب منها الشعر يومئذ والأشكال التي اتخذها قديمة بالية في نظر الجيل الحاضر. فالتونسي اليوم يتطلب غير ما يتطلبه تونسي الأمس فالخيال الذي يصدر عن صقل مأفون أصبح عبثا لا يتفق مع الحياة الجديدة. والمدح الذي يوحيه التمتق صغار لا ترضاه الرجولة ولا الأباء.
العويل عن الماضي الذاهب لا يرجع مافات بل يضعفنا ويقتل فينا الشخصية وحديثكم عن الحبّ بهذه الصورة الحيوانية منقصة في نظر الغير من بني الانسان. والتلهي بالقشور والفراغات ازاء بني الجد والكدح من أمم الغرب خير منه موت مريح.

وبالاحارة نريد أدبا قويا يدعم نهضتنا فقد مللنا أدب الضعف هذا الذي يقوم على البكاء والتحرق والاستسلام. نريد منكم أن توجهوا انظارنا إلى المستقبل لا الى الوراء حيث الماضي السحيق تريد منكم شعراء رسلا يهدون الناس إلى الحياة الحقة والمبادي السامية وينحطون لهم من هذه الدنيا جنّة ونعيما ولا نريدكم شعراء كشعراء الملوك الغابرين تعبثون تعنون كالذباب أمام الحيف. وإذا آملت هذا ورجوته فإنما أرجوه من الشباب الذي تفتحت عيونه على هذه المدنية العتيدة وعلى هذا التطور المعجز في كل مناحي الحياة. والاختراعات التي ما كانت تخطر في أذهان العصور الأولى واعتمادا على توجيه كل هذه الانقلابات في نفسه من حبّ الرفعة والقوة والمجد الطريف...

أمّا القدماء وأمّا الشيوخ الذين ألفوا الحياة الغابرة فلست أرجو منهم ذلك فأرجلهم لا تقدر على السير بجانب هذا التيار الجارف وعيونهم لم تتعود النظر في النور البراق والوقوف تحت قرص الشمس.

هذا وإني أرجو أن أوفق الى القيام بما عزمت عليه من خدمة للأدب التونسي أقدر لها من الأثر البالغ مدى كبيرا. وهي نشر سلسلة حلقات أدرس فيها

شعراءنا التونسيين وأدبهم بطريقة تحليلية على طريقة أفرام البستاني صاحب «الروائع» فهي طريقة ممكنة أدبيا وماديا إذ لا تكلف نفقات كبيرة في طبعها ونشرها ولا تتطلب من القارىء ثمنا باهضا مع أنّها تفيد الشباب المدرسي على الخصوص وتحفظ معالم الأدب التونسي وأصحابه في هذا القرن والأمل في اللّه.

الهادي العبيدي

اعلن المجلس الملي للديوان السياسي الموقف التونسي اذا فشلت المفاوضات ولم تجب الرغبات القومية من طرف فرنسا . فعلى فرنسا ان تتصور العواقب اذا تاثرت بجاليتها المحظوظة في علائقها مع تونس



كان الاسبوع المنصرم اسبوعا حافلا بالنشاط المختلف الالوان في السياسة التونسية اذ اصطدمت المفاوضات بصخرة عدم الاتفاق من جراء تصلب الجانب الفرنسي في عدم التنازل لحقوق التونسيين وثبات الجانب التونسي في التشبث بوجهة نظره في ان تكون المرحلة الاولى ذات تغيير وتحوير اصولي في الحالة الحاضرة ولا يدهن وجهها بطلاء جديد فقط

وكان ان اجتمع المجلس الملي للديوان السياسي ونظر في الموقف وقرر انسحاب ممثل الديوان السياسي من الوزارة اذا لم تنته الوزارة في تفاوضها الى انجاز فعلي يقود البلاد الى

(البقية على الصفحة الرابعة)

قرائنا نفتتح بهذا العدد سنتنا الثالثة من عمر « الصريح » وهي سنة ستكون بحول الله موفقة في مناحيها وانتاجها تبشر بالفجر الجديد المرتقب وستكون رائدنا فيها الدفاع عن مصالح الوطن وابنائه من كل اداء عاية داخلية او خارجية شديدا في الحق مقدرا للمواقف القومية السديدة هذا وقد تعزز هذا الجهد الذي بذلناه في الماضي في هذه السنة الجديدة بضم ... جديدة سيجعلها ساعدا بتكون خطوتنا الاتية متواصلة ثابتة ان شاء الله

لقد انضم الى « الصريح » كمساهمين في اعماله المالية والادارية الاخوان الفاضلان الاستاذان : الطيب المرزوقي وعبد الصمد المرزوقي وهما من عرفتهما فضلا وخبرة وجهادا في الحقل الصحفي طيلة السنوات الاخيرة وعرفوهما لاتهما الاستطلاعية في

البقية على الصفحة (٤)

اصغ إلي ...

سالني الصديق : كيف ترى هؤلاء الاستعماريين في مقاومتهم للتونسيين ؟

قلت : ليس العجيب ان يقاوم الاستعماريون التونسيين فذلك شان قد يبرره الانسان بالدفاع عن النعيم المنجر بدون حق خوف زواله كدفاع اللص عن المنام الذي يغتصبه ولكن العجيب ان يقاوم التونسيين التونسيون ويضعون في طريقهم العراقيل اثناء سيرهم الى خير الجميع

لقد اصبحنا ندفع عنا الفئتين الفئة الاستعمارية المحظوظة والفئة الاستعمارية المأفونة . واذا كان للاولى عذرها المتقدم فما عذر الثانية وهي تخرب بيتها بايديها وتساند اعداءها واعداء وطنها على اخوانها ومواطنيها ؟!

صحف تشرى في وقاحة . واطفال تطاولون في غباوة . وشيوخ قاعدون لا هم لهم الا تخابط التهم والتقاء الاعمال بالحوقلة والاستنكار . اللهم قنا شر قومنا قبل وقاينا من شر الاباعد فمواقفهم اصبحت اخزى واخزى . هدى .

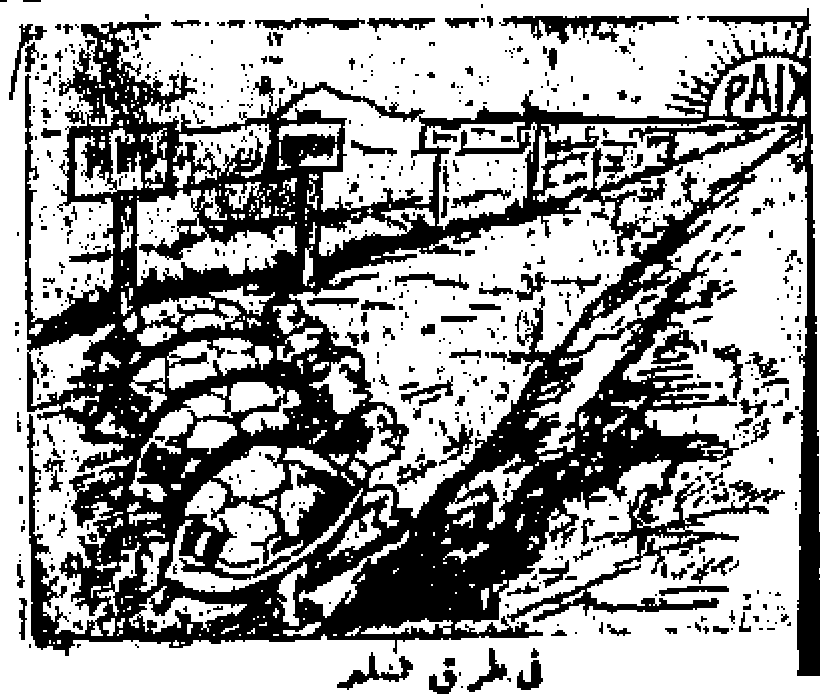


جلالة سلطان المغرب نصره الله في احدى مذاكراته الامية لاقر . تفاصيل الحادث الاخيرة على ص ٦)



المجاهد الاكبر الذي يكافح في الداخل والخارج لتحقيق استقلال تونس وسيادتها بمناسبة سفره الى الباكستان لحضور مؤتمرها الاسلامي العالمي سدد الله خطاه ورضي عنه وارضاه

نرى الشمس قريبا تطلع من الغرب لا الشرق ...



في طريق السلم

تجاذبت الحديث مع الاستاذ (شمرز) المنتدب من انجلترا لدراسة احوال الجو في الطبقات العميقة في الشرق الاوسط لمناسبة قرب افتتاح خط الطائرات النفاثة بين لندن وكلكتا لتطير في طبقة الستراتوسفير على ارتفاع ١٣ كيلومترا في درجة حرارة قدرها ٥٦ تحت الصفر وامتد الحديث الى سرعة هذه الطائرات وما ينتظرها من التحسينات فقال : ان السرعة الحالية تبلغ ٩٠٠ كيلومتر في الساعة واكد انها ستتضاعف في المستقبل حتى تصل الى الفي كيلومتر في الساعة .

فاذا علمنا ان سرعة دوران الارض حول نفسها عند خط عرض ٣٠ الذي تقع

(البقية على الصفحة ٤)

الفرززو

جريدة اسبوعية انتقادية جامعة
تصدر صباح كل يوم اثنين

تونس
السنة الاولى
العدد السادس

الثلاثاء
٨ ربيع الانور ١٣٧٥
٢٥ اكتوبر ١٩٥٥

الاشتراكات
ممنوعة

الثمن
٢٠ فرنكا

التشكيلة التونسية المنسجمة !



المطرب : الدنيا ساعة بساعة اغنم زمانك لا يفوت

برنامج الحكومة التونسية

يعتمد على (س) و (سوف)

اذاعت حكومتنا ـ حفظها الله ـ على الشعب التونسي الذي فقد صبره كلاما طويلا مملا قالت انه برنامجها المنتظر الذي طالما طالبها به الصحف ورجال المنظمات والشعب من ورائهم

وطالعنا البرنامج فوجدناه كبرنامج الاذاعة التونسية مفككا لا روح فيه ولا سياسة واضحة تصفه بصفتها وتربط بين اجزائه وانما ليشبه مائدة جمع من الاطفال في يوم عيد احضر كل منهم ـ زقديدا ـ طبخها بنفسه في بيته ثم صفت على مائدة واحدة !!

وتبعا لذلك فلاحظنا ان قاعدته الكبرى التي يقوم عليها هي ـ س و ـ سوف ـ

ففي ميدان الاشغال العمومية نجد « اما ثروة البلاد العمومية فانها ستستثمر وسيقع درس امكانية تمنيم البلاد »

(بقية على الصفحة ٢)

ابرز الاحداث منذ صدور عددنا الاخير

● صرح المندوب السامي لفرنسا بتونس يوم الخميس الماضي بان ٢٠٠ ثائر جزائري قد هاجموا مركز المناجم بالقرب من منطقة الرديف .

● صرح الرئيس الطاهر بن عمار الى صحيفة ـ لابريس ـ بان اعمال اولئك الثوار اعمال اجرامية لا يبررها اي ضمير وان استتباب السلم بتونس امر يعز علينا حتى لا يمكن لنا ان نسمح للغير بتعكيره

● اقتلعت امس ورقة يوم الاحد من رزنامتي فاذا هذه الابيات على ظهرها للصديق الشاعر الاستاذ محمد المرزوقي :

اتحدوا : شعبنا الشمالي شعب
واحد لا يروم ظلم الحدود
تونس والجزائر اليوم احتا
ن الى (المغرب) الاقصى البعيد
وحدة لا يحط هيكلها الدهـ
ـر والسعايات من عدو عنيد

(البقية على الصفحة ٣)

نظرتي الى الحياة

الحياة تقدم وزحف الى الامام

والوقوف في زحام العالم تعرض للاكتساح والابادة .

وشعب تونس ألف بعد طول الجمود والنوم ، التحرك والسير الى الامام لانه مايزال ظمآنا الى الحرية متطلعا الى مقعده بين الشعوب الذي لم يبلغه بعد

ومن هنا جاءت استجابته الى كل صوت يقول له : هلم الى المجد، هلم الى السير نحو هدفك الاسمى

وليس من الطبيعي ان تتوقف هذه الرغبة الجامحة فيه ، ولن تتوقف ان حاولنا ايقافها

لهذا فمن الخير لكل رشيد ان يصاحب تلك الرغبة ويغذيها بالحكمة وسداد الرأي ويوجهها الوجهة القويمة

وهذا ما يجري في تونس اليوم السايرة الدائبة على بذل الجهد للحاق بركب الامم ، فلنسر مع امتنا السايرة نحو المجد فذاك عنوان الحيوية والاحساس بالوجود

ـ الفرززو ـ

نشرت صحيفة الصباح اعلانا طويلا عريضا في رأس احدى صفحاتها لبنك من البنوك الفرنسية التي له فرع بتونس وقد جاء في هذا الاعلان ما يلي (بنك اسس سنة ١٩٦٠) ولاشك ان صاحب الاعلان يحمدالله على ان (مصفف) الاعلان لم يكن موظفا ببنك خوفا من ان يعامل زبائن البنك عند قبضهم المال بالسخاء الذي (صفف) به تاريخ انشاء البنك

المراجع

1) جريدة «الصّواب»

سنوات 1927 - 1928 - 1929 - 1930 - 1931 - 1932 - 1933

2) جريدة «الصريخ»

سنوات 1949 - 1950 - 1951

3) جريدة «الزمان» سنة 1933

الفهـــرس

شركة فنون الرسم والنشر والصحافة ـ القصبة ـ تونس ـ الهاتف : 264.988

إن سيرة الهادي العبيدي الذاتية لا تنفصل عن سيرة جيل كامل من الأدباء والفنانين بدأت حركتهم في أواخر العشرينات وامتدّت إلى ما بعد الاستقلال وهي قصّة طويلة تمتزج فيها الملاحم بالمآسي، آمنوا وهم في عزّ الشباب بقيم الأدب والفنّ وغامروا في سبيلها بكلّ الكيان لا بطرف اللّسان حين لم يكن للأدب ولا للفنّ في عامة البيئة من الاعتبار إلا على أنهما مفسدة للأخلاق ومضيعة للعمر.

توفيق بكار



أوت 1992

الثمن : 4.500 د.ت